صوت الراوي

في مساء بهيج، جلس الراوي ينصت لأصوات الرواة يلقون قصصهم عن الحقول والجبال والسهول والصحاري، قصصاً من الإنسان عن الإنسان. اندهش الراوي وتساءل: كيف أن هذه القصص ظلت تتردد في جنبات الجزيرة العربية دون أن يرويها أحد؟

نصب الراوي حنجرته وأشعل صوته في فضاء الإبداع. نادى وقال: أنا راوي الرواة. استنهض الراوي جماعته. بنوا خيمة للإبداع، أشعلوا مواقدهم، وبسطوا دائرة الضوء في منابت السرد والسمر.

بحضرة الراوي، قال الرواة شيئاً من ألم الإنسان وفرحه، من توقه وطموحه، من سره وبوحه، من ذكرياته وأحزانه، من تفاؤله وتشاؤمه، من خصامه وجدله. فرح الراوي بالرواة ذكورهم وإناثهم، بتباين سردياتهم، بعنفهم وغضبهم، بفرحهم وحزنهم، بحبهم وألمهم.

قال الراوي: إن الإبداع حضـــارة، وأنتـــم، أيهـــا الرواة، أهل فن وحضارة. فأشــكر إبداعكــم وتواصلكــم الحميم. يا معشر الرواة، هؤلاء جماعتي، جماعة الراوي، مهمتهم البحث عنكم، عن إبداعكم، تقديم صوتكم لقـــارىء العربية أينما كان. فليكن تواصلكم مستمراً بقدر رغبتهـــم في العطاء من أجل الإبداع.

بعد هذا الحضور الرائع لـــلرواة، أشـــرق عهـــد الراوي يحمل نبض الحكايات من أرض العرب، مؤكداً أن عليه الرواية وعليهم الإبداع. وللقراء المتعة والرأي.

جماعة الراوي

عبدالقادر عقيل

- من مواليد ١٩٥٤ (البحرين)، أصدر عدداً من الكتب منها: استغاثات في العالم الوحشي (١٩٧٩)، مساء البلورات (١٩٨٥)، الشوارق (١٩٩١)، الشوكران (١٩٩٤)، كف مريم (١٩٩٧).

الحصار

أخرجتُ رأسي من السيارة وناديت على ابني الصغير أستحثه على الإسراع في المجيء.

أطلت زوجتي برأسها من نافذة البيت باسمة الثغر وقالت: "سيأتي حالاً".

طبع محمد قبلة سريعة على خد أمه، ثم ودعها بيده وركض نحو السيارة.

كان يوماً مشرقاً، صافياً، مواتياً للقيام بجولة في السيارة.

كثيراً ما يطالبني ابني، الذي لا يتجاوز الخامسة من عمره، أن أخرج به للتنزه، ولكثرة مشاغلي فقد أرجأت هذه الفسحة إلى يوم عطلة مناسب.

زوجتي فضّلت المكوث في البيت، فهي تخاف كثيراً من ركوب السيارة، ولكنها أعدت لنا الكثير من الشطائر والحلوى كأنما سنرتاد صحراء بعيدة.

شعرتُ براحة عميقة وأنا أرى محمداً جذلاً، يكاد يرقص من فرط سروره.

قلت له:

"سأريك جبلاً عظيماً يقع في نهايات المدينة".

قال بغبطة:

"وهل سنتسلق هذا الجبل؟".

أومأت له بالإيجاب، وأخذت ألفق قصصاً كثيرة عن أيام طفولتي، وكيف تسلقت الجبل بنفسي، وتهت في بطن الجبل عدة أيام، ثم خرجت سالماً وعدت إلى البيت.

رأيت الدهشة تغمر وجهه وهو يستمع إلى قصصي الملفقة، ولم يهنأ باله إلا بعد أن أجبته على

عشرات الأسئلة: عن الأشياء التي رأيتها داخل الجبل، وعن الطريقة التي وصلت بها إلى البيت ، وأدق التفاصيل الأخرى.

صاح فرحاً:

"هاهو الجبل".

وصلنا إلى الطريق المؤدي إلى الجبل. انعطفتُ وسرت مسافة قصيرة، إذ بدورية الشرطة تتجه نحونا، فأوقفت السيارة لاستطلع الأمر.

- "ماذا حدث؟"

ترجل أحد أفراد الدورية وتقدم بخطوات واسعة نحونا. ارتبَكتُ قليلاً.

قال الشرطي:

"ممنوع دخول هذه المنطقة".

تجرأت وسألت عن السبب، فأوضح لي بأن جريمة قتل قد وقعت بعد ظهر اليوم عند منحدر الجبل، وأن رجال الشرطة يقومون بتفتيش المنطقة.

رجعت إلى الشارع العام، وأوقفت السيارة شارداً بفكري في الجريمة التي وقعت من القاتل ومن المقتول؟.

قال محمد:

"أين سنذهب الآن؟".

قلت له وأنا أحرك السيارة في اتجاه أمامي:

"سنذهب إلى مكان جميل عند شاطىء البحر".

وأقنعته بقصص ملفقة أيضاً عن السمكة الكبيرة التي تغني في البحر وتلعب مع الأطفال، وعندما ألقى علي بأسئلته الفضولية لم أستطع أن أجيب لأنني كنت أسأل نفسي: كيف يمكن أن يقتل الإنسان إنساناً آخر؟.

"- أين شاطىء البحر؟".

"- سندخل الآن عبر بساتين النخيل، ثم نصل إلى الشاطىء، كثيراً ما جئت إلى هنا وأنا صبي صغير".

وما أن سمع ذلك حتى ألقى عليّ بأسئلته المتلاحقة.

انحرفت عن الشارع العام، ودخلت في شارع فرعي يؤدي، حسب علمي، إلى شاطىء البحر، لكنني أوقفت السيارة حائراً حين رأيت شارعين أحدهما يتجه إلى اليمين والآخر إلى اليسار. لا أذكر أنني رأيت هذين الشارعين من قبل. ترددت في اختيار أحدهما.

قال محمد:

"لنذهب من هنا".

وافقته على عجل، ودخلت في الشارع الذي يتجه إلى اليمين وجدت نفسي في طريق ضيق لا يسع إلا لعبور سيارة واحدة، وعلى طرفي الشارع نخيل كثيرة - واقفة - ميتة، والأرض تبدو لكثرة ما استنجدت بالمـــاء متشـــققة ومتصلبة.

كل شيء يوحي بالخراب في هذا المكان. واصلت السير مرتجياً الوصول إلى الشاطىء، أو إلى طريق آخر أقل وحشة وكآبة.

"- متى نصل إلى الشاطىء؟".

لم أحر جواباً لأنني لاحظت أن مجموعة هائلة من النخيل الميتة تقف في منتصف الطريـــق وتمنعنـــا مـــن المرور. شعرت بغيظ شديد. ما الذي دفعني للوقوع فـــي هذا المأزق.

"- متى نصل إلى الشاطىء؟".

"- سنعود من حيث أتينا. من المحتم أنني أخطأت المكان؟".

وحتى أسلك طريق العودة فلابد أن أرجع بالسيارة إلى الخلف مسافة ثم أعدل من وضعها. شعرت بألم في رقبتي من جراء الالتفات إلى الخلف. عند المنفذ الضيق أدرت السيارة وأصلحت من وضعها لتندفع إلى الأمام عبر الطريق الذي جئنا منه.

"- أين سنذهب الآن؟".

"- سنعود إلى الشارع الذي يتجه إلى اليسار، هو الطريق الذي سيصل بنا إلى الشاطىء".

قطعت مسافة في الطريق ولم نصل إلى الشارع العام، ثم بغتة وجدت النخيل الميتة واقفة في طريقنا. مستحيل، كيف جئت إلى هنا ثانية؟.

"- متى سنصل إلى الشاطىء؟".

"- اصمت ودعني أفكر قليلاً".

لا مجال للتفكير، يجب العودة إلى الوراء والإصلاح من وضع السيارة والخروج من هنا بسرعة.

بعد لأي وصلتُ إلى المنفذ الضيق، وانطلقت بسرعة إلى الأمام. قطعنا مسافة في الطريق، ثم رأيت النخيل الميتة من جديد.

يلج الخوف قلبي فأضحك ضحكة باهتة.

"- لنعد إلى البيـــت، لا أريـــد أن أرى الســمكة الكبيرة"

قلت له والقلق يستبد بي:

"أنا أيضاً أريد العودة إلى البيت".

نزلت من السيارة لأستكشف الأمر. تبعني محمد. مشينا معاً في الطريق الموحش الكئيب. وقفتُ أنظر إلـــى الطريق الذي جئنا منه المفترض أن يُرجعنا إلى الشـــارع العام، فكيف إذن نعود في كل مرة إلى هذه المنطقة؟.

سحبت يد محمد وعدت مســرعاً إلـــى الســيارة. أرجعت السيارة إلى الوراء. كنت مضطرباً جـــداً، ولـــم أعرف أن العجلة الخلفية تنحرف لتنغرز في حفرة طينية.

حاولت مراراً إخراج العجلة من الحفـــرة ولكـــن دون جدوى.

"- أريد أن أعود إلى البيت".

غضبت وصرخت في وجهه:

"أنا أيضاً أريد العودة إلى البيت".

لم يحتمل غضبي فبكى. انتابني شعور بالندم فقرّبته من صدري. وطلبت منه السكوت والسكون ريثما أجد حلاً، لكنه أصر على بكائه.

قلت له:

"امكث هنا وسأحاول إخراج العجلة من الحفرة".

توقف عن البكاء، وتبعني ثم وقف يراقب ما أفعله.

أجهدت نفسي وجربت كل الوسائل، كان واضحاً بأنني أحتاج إلى مساعدة شخص آخر، وهذا الصغير ليس بوسعه أن يأتي عملاً. تمنيت لو أن سيارة تمر من هنا. أو يأتي أحد لنجدتنا.

كانت الشمس تنحدر نحو المغيب، وهذا ما زاد من قلقي. رفست العجلة وندمت على اللحظة التي فكرت فيها أن أخرج من البيت.

كان محمد خائفاً، يلتفت حواليه كثيراً، ويلتصق بي كأن شيئاً ما سيخطفه مني.

عدت للمحاولة مرة أخرى ولكن ذهبت محاولتي سدى، والظلام بدأ يرخي سجافه، ويزيد من الوحشة والكآبة. توقفت بعد أن داهمني الإنهاك والتعب.

"- ألن نعود إلى البيت؟".

"- سنبقى هنا الليلة، وفي الصباح الباكر سنعود إلى البيت".

لكنه بدا غير راضٍ عن فكرتي. أدخلته في السيارة وجلسنا ننتظر.

"- أريد أن أذهب إلى أمي".

سألت نفسي: هل سأجد حلاً لهذه الورطة؟.

طلبت منه أن يحكم إقفال باب السيارة ويرفع زجاج النافذة تحسباً من تسرب الزواحف إلى الداخل. أخرجت له بعض الشطائر. تناولها. وحكيت له بعض الحكايات المسلية فاسترد بعض هدوئه.

فكرت في أن أخرج وأمشي إلى نهاية الطريق، فقد أهتدي إلى الشارع العام. ولكن حلكة المكان ووحشته جعلاني أستعيض هذه الفكرة بالإنتظار.

نام محمد، بينما بقيت أصيخ السمع لأية حركة تصدر في الخارج. وبين الفينة والأخرى ألتفت إلى الوراء للتأكد من عدم وجود أي شيء.

قلت لنفسي: لماذا يورط الإنسان نفسه هكذا؟

فجأة تجمدت في مكاني، وارتعدت فرائصي. في البدء خلت نفسي أتوهم. ولكنني تأكدت من أن شيئاً يتحرك في الظلام. وضعت يدي على مفتاح التشغيل ثم تذكرت بأن السيارة لن تتحرك بسهولة، فخفضت رأسي حتى صرت تحت المقود.

كان الظلام كثيفاً، والنجوم منطفئة، والقمر شحيح الضوء، ولكنني استطعت أن أرى فتاة تقف أمام السيارة. يبدو أنها عرفت بأنني في الداخل فأخذت تشير عليَّ أن أذهب إليها. رفعت رأسي وأمعنت النظر فرأيتها تذهب ثم تعود وتشير عليَّ. أشعلت فجأة المصابيح الكاشفة فاختفت الفتاة وبقيت النخيل الميتة الواقفة.

أطفأت المصابيح حتى لا يسبب اشتعالها في موت البطارية، وأخذت أرقب بتوجس ما يدور في الظلام الكثيف.

حدثت نفسي: سأنام ولن أصحو حتى يبزغ الفجر. ولكن عيني أبتا أن تركنا للنوم في مثل هذا الوضع، فبقيت ساهراً.

أخافتني حركة محمد وهو يهب من نومه. كان يريد أن يتبول.

أخرجته بهدوء من السيارة، وطلبت منه أن يتبول بسرعة بينما قمت بفتح الصندوق الخلفي وأخجرت منه آلة حادة يمكن أن ندافع بها عن أنفسنا.

أنهى تبوله فأدخلته السيارة، وأحكمت إغلاق الباب من الداخل. أمسكت الآلة الحـــادة بيـــد ثابتـــة ورجعـــت للمراقبة.

رأيت الفتاة ثانية. أشعلت الضوء. اختفت.

نظرت إلى الساعة. كانت تشـــير إلـــى الحاديـــة عشرة. أمامي خمس ساعات على الأقل لينبلج الصبـــاح. كيف ستمر.. هذه الساعات الطويلة..؟

أغمضت عيني محاولاً النوم. ويبدو أننـــي نمـــت بالفعل. فحين استيقظت فجأة اعتقاداً مني بأن شخصاً مـــا يسترق النظر إلينا. كانت الساعة تشير إلى الثانيـــة بعـــد منتصف الليل.

تابعت النظر في الظـــلام الـــذي بـــدأت عينـــاي تتعودانه. رأيت الفتاة الصغيرة تتقافز وترقص وتدور حول النخيل الواقفة ثم تقف وتنظر إليّ طالبة أن أذهب إليها.

رأيت أنها في هذه المرة تدنـــو الهوينـــا نحـــوي. أشعلت الضوء. اختفت.

خشيت أن أصاب بمكروه من جراء هذا التوتر والضيق الذي أنا فيه، ولكنني تماسكت، وأخذت أفكر في طريقة أخرج بها العجلة من الحفرة في الصباح الباكر.

انتفضتُ من رقادي مفزوعاً، كان محمد يهزني ويطلب مني أن أتحرك. نظرت إلى الساعة. كانت الساعة السادسة صباحا. قمت على عجل لأنفذ الفكرة التي ومضت في رأسي.

أخذت أبحث عن بعض الألواح الخشبية القوية، ثم رفعت السيارة بالرافعة ووضعت الألواح على الحفرة الطينية، وأسرعت لإبعاد السيارة قبل أن تتكسر الألوان.

نجحت الفكرة، فصفق محمد وصاح مبتهجا. ركبنا السيارة وعدت إلى الوراء. أصلحت من وضع السيارة. واندفعت إلى الأمام بسرعة جنونية محاولاً الخروج من هذا المكان.

قطعت مسافة قصيرة وجسدي كله يرتعش خوفاً من أن تظهر أمامي النخيل الميتة. ولكنني أطلقت صيحة فرح عندما رأيت الشارع العام الذي دخلنا منه أول مرة.

قال محمد مغتبطاً:

"لنعد بسرعة إلى البيت".

قلت له:

"بأقصى سرعة".

على جانب الشارع العام رأيت صبية تلوّح بيدها طالبة أن أتوقف.

وصلت إليها وتوقفت. لم تكن تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها. تلبس ثوباً ضيقاً مشدوداً على جسدها النحيل. شعرها قصير جداً، ومسحة من الشر الغامض يكسو وجهها الصغير.

حدجتني بنظرة ماكرة، وتقدمت نحونا. تذكرت وجه الفتاة التي كانت تظهر أمامي ليلة البارحة، فحركت السيارة مبتعداً عنها قبل أن تصل إلينا.

نظرت في المرآة فرأيتها واقفة تنظر إلينا وتطلق ضحكات ساخرة جداً.

★ ★ ★

عبدالناصر مجلي

- شاعر وروائي، من مواليد ١٩٦٣ (اليمن)، أصدر مجموعة قصصية (١٩٨٥). يقيم حالياً في الولايات المتحدة.

ما قالته السيدة عذبة وآخرون

- ما قالته السيدة عذبة في يوم النار الذي يسبقه شهر الثلج :

مطت شفتيها من شدة الحرارة، مع أنها كانت ترتدي "الدرع"، وتضع طرحة خفيفة على شعرها الأشيب، إلا أن العرق كان يتفصد من وجهها العجوز، الذي كان فتياً ذات يوم، ويش مريكن هذه يا غادة الدنيا نصها نار، ونصها ثلج، في عصارى الصيف في تلك السنة البعيدة، كانت "أمي" عذبة قد قضت سنتين كاملتين بعيدة عن

بقرتها، التي كانت تحتفظ لها بصورة ملونة تناجيها كل حين، بقرة عادية حمراء اللون، تدعو الله أن يعيدها سريعاً إلى قريتها النائية في وطنها المنسي، لكي تطعم "سعيدة" بيديها، كان الوقت يمر بطيئاً عليها، فتقضي ساعاتها في شرفة البيت، تحنّي قدميها".. قالوا يا وليدي، إن الحنّاء مبردة أيام الحمى". لها وجه صغير فيه حنان قديم، وجسمها قصير أمومي يصلح للبكاء بين يديه، "شي وصلتكم رسايل من البلاد؟!"، تسأل ولا تنتظر إجابة كأنما لتقطع الصمت النابت بيننا، ثم تأخذ في التحدث عن شبابها الغارب، وتحن إلى نومة هانئة تحت شجرة حيث توجد بقرتها، وحينما تتعب من الجلوس، تسأل مستعدة للدخول إلى البيت، لأداء الصلاة، "يا وليدي.. أدِّ حق الله يدِّيْ حقك" وتتصرف قبل أن أجيبها عن الوقت الذي سألتني عنه.

- ما قاله الولد المقتول قبل أن يموت:

هجموا عليه صامتين، كانوا من بني جلدته... "واتسب كازن"[١]، فتح لهم باب المتجر، لم يكن ليصدق بأنه فتح الباب لقتلته، لم يكن يظن بأنهم قد يقتلونه هؤلاء.. الكوازن"[٢].

وضع الشرطي مايك تقريره عن الحادثة - كان لابد من إيراد اسم الشرطي، ليبدو الوضع منطقياً - وكان آخر سطر يقول "وبعد أن أحضرنا مترجماً يجيد لغة القتيل، علمنا أن ما كان يتمتم به المغدور، كلمة واحدة، كان يرددها باستمرار "أمي.. أمي".

- ما قالته السيدة أم جاسم:

....

وتربعت على الأرض بعد أن أتعبها الوقوف، متلفعة بسوادها، تحدق في السيارات والبشر، وخضرة الصيف الشاحبة... "شنو هذا تنظر في عيني العجوز بحنق، شنو هذا الله يهديك يابو جاسم"؟ لم ينطق، بينما بصره يحدّق في البعيد، "ترى مليت هذي القعدة، مشتاقة لداري وحلالي"، قالتها موشكة على البكاء،.. "يعني يا بنت الحلال أنا المستريح"، خرجت كلماته متهدجة مع الدخان المتطاير من فمه وأنفه،.. خلاص نعوّد على بلادنا" "هَمْ(٣) ما نقدر"، التفت بحدة تجاه رفيق العمر العاجز "ليش؟!" صمت، تتحنح "الله يهديك يا أم جاسم..." لهجته البدوية كانت شديدة العمق، كان مثل حكيم خذله قومه ولم يعد معه سوى زوجته الفانية "كافي اللي صار ما فيه حاجة

تستحق الرجوع..." سكت برهة، بعدها دهمته غصة قوية علمته الأيام كيف يداريها" الأولاد كلهم قتلوا في الحروب، يعني ما فيه....!" لم يقدر أن يكمل، صمت كمن مات، "والله.. والله.." قالتها أم جاسم من بين دموعها.. ورب جاسم الغالي، ما فيه أحلى من قعدتي بداري، ولا أجمل من عصاري البصرة و....!" وأجهشت بالبكاء، كان بكاءً حاراً ليس له صوت.

- ما قاله رجل الأربعين المجنون:

وقف أمام المرآة، كان قد انقضى وقتٌ طويل قبل أن يفعلها، بعد فقده لأهمية الوقوف أمام الزجاج المشروخ العاكس للصورة، كان وجهاً ضامراً، مطعوناً بانكسار مروع، ذلك الذي رآه أمامه، لم يتحرك، بل استمر يحدق في صورته، كمن وجد شيئاً بعد فقدٍ طويل، شيء ما تحرك داخله، شيء اهتز بين جوانحه، وكسرزجاج عينيه، لدرجة انهمرت معه دمعتان ساخنتان، لحظة صاعقة لم يتوقعها المفتول العضلات، الوسيم الوجه، الرشيق القوام ذات يوم، "هل هذا.. أنا؟!" نطقها بخفوت ورعب، سنين طويلة مرت، لا يدري لها عدداً، قبل أن يدهمه جُرح البُكاء، بتلك الوحشية، بذلك الضعف، بكل ما في الضياع من ضياع.

- ما قالته السيدة عذبة في مناسبة أخرى:

جسمها الضئيل، ووجهها الـــذي كـــان جميـــلاً، وجعدته الأيام، وأحداث لا أحد يدريها، يقفان أمام شـــمس يوليو الحارقة محايدين، كانت صامتة، كمن يدعو للنـــور القادم من الفضاء البعيد، كل عصر تقـــف وحيـــدة فـــي الشرفة، تنظر حواليها بغربة، الشارع مُقفـــر، والأشـــجار عالية لا تسأل عن أحد، والحشائش ساكنة تلون الشـــارع الطويل بخضرتها اليانعة، وأصوات أطفال يلعبون تأتيها لا تدري من أين، تذكر أنها دخلت الطائرة على أساس أنهـــا ديوان كبير تنتظر فيه موعد السـفر،.. وحينمـــا وطـــأت بقدميها أرض " جون كنيدي"[٤]، لم تظن أبـــداً أن البـــلاد التي تقع وراء بحر الظلمات قريبة إلى هذا الحد، تذكرت أغاني الفُرقة والأشـــواق واللوعـــة والانتظـــار لأولئـــك المنتظرات الأحبة الغائبين في مفاوز المـــاء والكهربـــاء. الشجر الأخضر يحيط بها من كل مكان في حـــرّ يوليـــو الخانق، تململت في كرسيها وأطلقت تنهيدة طويلة "شوقي شوقاه، إن بقرتي هانا[٥]، حتى ترعى من هذا الشجر!"

- ما قاله عويس الصعيدي وهو يحتضر:

كان مؤدباً، رقيقاً لا يغضب أحداً، يـــداوم علـــى

الصلاة، مثل عابد خرج من أحد كتب التاريخ، له صوت أليف، تجعله محبباً تلك اللهجة المصرية القادمة من عُمق الصعيد الجواني، كما كان يفاخر أمامنا، "شايف حضرتك" الجملة التي كان يباشر بها حديثه، والتي كنا نقوم بترديدها أمامه مازحين، وحينما نتمادى ينهرنا بصوته الهادىء "بس كفاية يا اخوانا.. هي شغلانة" فنضحك ملء أشداقنا. كان رجلاً ناجحاً، ذاق المرارات حتى أتمّ تعليمه، وأصبح مهندساً "إزيك يا هندزة"، نماحكه قاصدين، وقد كان على دماثته سليط اللسان إذا تمادينا " يابني خليك في حالك أحسن أبهدلك".

كان لم يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ولم يتزوج بعد،

" يا هندزة.. هو صحيح جدك الصعيدي اللي اشترى التروماي"

حينما يسمع هذه الجملة كان يضحك حتى تدمع عيناه.. "والله العظيم افتراء" ثم يستدرك.. "ثم أنت مالك ومال التروماي ما تخليك في العصير، يابتاع الحلبة". كانت مشاريعه كثيرة، حتى أتته المنية، كان حادثاً مروعاً أودى به بعد أن خرج من الصلاة ذلك الرجل العصري

الجميل، أسمر الوجه، ضخم الجثة كمصري حقيقي، كان احتضاره طويلاً، لم يبك، وكنا نحن إلى جواره، وهو الوحيد إلاَّ من حُبنا له، "مش عاوز أموت هنا.. رجعوني بلدنا" مات عويس الصعيدي وهو يتمتم باسم وطنه البعيد.

- ما قاله الوقت قبل الزوال.

تك.. ت.. ك...

يدخل النوم وعوالم الرعب الليلي، مستسلماً كمن يساق إلى حتفه.

تغيب الشمس في نفس موعدها الدهري، وتأوي الطيور إلى بيوت القش المحاطة بالثعابين، ينزف قليلاً من العرق في نومه المضطرب، وهوام الليل تمارس شعائرها القديمة، والناس في الهجوع المؤقت، والنساء يرسلن شكواهن ويبتسمن بالرضا. وبعد كل هجعة يستيقظ كل صباح مفزوعاً آسياً، شديد الحزن كمن أضاع شيئاً ثميناً لا يدريه، يعاود السيلان في النهر الطويل، فرد نكره يخشى أن تطأهُ الأحذية، رأسه مطأطأة وقلبه جامد الخفقان، وجسده عود ناحل بذرت الغربان على هامته ذرقها. تك.. ت.. و... ك....

يعود مساء إلى أول الشوط، يخلع ملابسه، يستلقي

على سريره، بعد أن يعب شربه الردىء، ويُصلي رئتيه بتبغٍ رخيص، مغازلاً نوماً لا يجيء، يغمض عينيه، ويبدأ عراكه المعتاد كل هجوم، قال الوقت (...!!).

استيقظ اليوم التالي، لأنه كان يجب عليه أن يستيقظ، وغطس في النهر البشري الكظيم، بنفس المعالم المحايدة والأحاسيس.

تك..... ت........................ ك!

- ما قاله الفتى الطيب القلب الساذج الفعل:

مثل بركان انفجر في وجوهنا، كنا نضحك نحن زملاؤه في العمل من غضباته المتكررة وتهديداته بالمغادرة وعدم العودة إلى الأبد، " لو منكم رجل واحد، يلحقني إلى الخارج وسأريه يا مكالف"

دعوة سخية يوجهها إلى لا أحد، وهو في العمر العشرين، وحسب، ارتدى معطفه على عجل، وأخذ يزوم مثل ثورٍ ذبيح "كرهت العمل، والدنيا، وكهرتكم يا أبناء الـ..."، بعضنا يأخذه الغضب ويسعى إلى البطش به، لكننا نمنعه من ذلك، مات مخلوق الضحك على شفاهنا، كان جاداً هذه المرة، وكنا في حرج مما تفوه به، نتركه يهذي أو نجعله يأكل ما يخرج؟!..

سكتنا، نكظم ضحكات مدوية، فهو فتانا الطيب القلب الساذج الفعل، هدأت ثورته، كما هي عادته، خلع المعطف، أخلد برهة إلى الصمت، ثم رفع صوته عالياً "سامحوني يا إخواني".

وانفرج فمه عن ابتسامة كبيرة شديدة الطيبة والصدق.

الهوامش

١ – What is up cousin

٢ – Cousins

٣ – كلمة عراقية شعبية

٤ – مطار نيويورك

٥ – ياليت بقرتي هنا

★ ★ ★

عبدالعزيز مشري

- روائي من مواليد ١٩٥٤ (السعودية). أصدر خمس مجموعات قصصية موت على الماء (١٩٧٩)، أسفار السروي (١٩٨٦)، بوح السنابل (١٩٨٧)، الزهور تبحث عن آنية (١٩٨٧)، أحوال الديار (١٩٩٣).

القلم

مولع بالألوان، والأرض من حولي تمنح عيني بسخاء؛ كل ألوان النبات والصخور.

وأما السماء المندلقة بزرقتها الصافية في الصيف والربيع.. فلا مأمن من غيومها ورعودها في شتاء صدري.

ما الذي يمنع من اختلاء القلم بالورقة في ركن الدار قرب النافذة!

أرسم أشكالاً لا وجوه لها أحياناً.. ليس مهماً، كنت أتمنى لو أملك قلماً لا ينفد منه الحبر.

***

من قرية بعيدة.. يجيئنا رجل طويل، يتحدث مع جدي كلاماً مرتباً، ويبقيان يتسامران.

يبتسم في واجهتي، بوجهه المستطيل القمحي وأنفه الممتد كالسيف.. يقول لي:

في أي سورة من القرآن بلغتم.

أخاف أن يسألني إن كنت أحفظها، وما معنى "الوسواس"، فأقرأ عليه سورة "الصمد" مرتين.

يخرج قلماً أسود عريضاً من مشبكه على الجيب، يكتب على الورقة أمامي:

"أنا تلميذ مهذب".

ثم يعيد القلم إلى مكانه، ومعه تذهب عيناي وأمنيتي، (لو أن معي مثل هذا القلم العريض).

***

جاءنا بعد غياب.. أعرفه من الطريق البعيد (بعمامته البيضاء المجنحة، وعقاله الأسود الثقيل).

أفرح جداً، وأرى الدنيا ورقة بيضاء.. ساكتب فيهما كل شيء، سأكرر عبارات جديدة يكتبها لي، وسأبذل غاية المعرفة في تقليد حرف "الهاء" الذي يرسمه بكفاءة لا أدري متى أبلغها.

***

يبتسم جدي بلقائه، يتبادلان أقوالاً مرتبة (أظنها شعراً).

أقعد أمامهما، وتذهب عيناي دون تردد إلى قلمه الأسود بمشبكه على الجيب.

أقول دون مناسبة:

يا عم.. اكتب لي بقلمك.. أريد أن أقلد ما تكتب.

يشير بيده (انتظر)، بعد أن يتكلم مع جدي طويلاً، ويكلمه جدي طويلاً، وهما يشربان القهوة التي أصبها لهما بأدب، يمسك بقلمه (الذي يزنّ مشبكه في أذني).. يكتب في دفتري: "من جد وجد ومن زرع حصد".

يا للحظ الجميل.. (إنه القلم، لكنني أستحي أن أطلبه لأكتب هذه العبارة).

***

عندما ضغطت على سن قلم الرصاص.. انكسر السن، ونفرت الشظية إلى أنفه الذي يشبه باستقامة السيف.

خجلت، ونثرت بصري على الورقة أمامي.

ناولني قلمه العريض لمدّة مرة فقط. كتبت:

"التلميذ يكتب والقلم يتكلم".

★ ★ ★

شريفة الشملان

- من مواليد ١٩٤٨ (السعودية)، أصدرت مجموعتين قصصيتين: منتهى الهدوء (١٩٨٩)، مقاطع من حياة (١٩٩٣)، وغداً يأتي (تحت الطبع).

الليلة الأخيرة

الدقائق تمر كلسعات نحل تائه.. لجة الليل تتحدر إلى لب روحها.. الغرفة الكئيبة والأغطية البيض، والجدران الصفراء.. وأنابيب هنا وهناك.. والليل يتليّل أكثر فأكثر..

عصفور جميل رعته طول حياتها، سيغادرها غداً.. سيفرّ تاركاً عش صدرها خاوياً.. آآه كيف ستكون بدونه؟

ناهضاً كان، جميلا معطاءً.. في التاسعة، بدأ يشق

جدار صدرها.. كانت خائفة من هذا الألم الخفيف.. لكنها رأته يتدور ببطء وينطلق.

فرحت بالقادم الجديد.. في خلوتها تنزع قميصها لتنظر.. يميناً وشمالاً تجلس في الشمس لترى ظلهما الصغيرين. كانت تداريهما عن الأنظار وككنز لا يطلع عليه غيرها.. نهرتها أمها من إحناء ظهرها ولمّ ساعديها حول صدرها.. بقيت هكذا تطوي يديها حولهما، لتخبئهما.

هما كالورد لابد مهما تكمم أن تنتشر رائحته يوماً.. في المتوسط عرفت كيف تحتفي بهما، وكيف تختار أجمل (الحمّالات) لتغطيهما. نحف خصرها وزاد جمالها.. وهي سعيدة بالعصفورين.. يخجلها أحياناً الكلام المباشر عنهما في القصائد لكنها ما أن تخلو لنفسها إلا وتعيد القراءة.. لم تكمل الثانوية، إلا وكانت زوجة.. ولم يمر العامان إلا وفي يدها طفل رضيع، طفل كالقمر؛ فمه الجائع يبحث عن عصفوريها، ثم يتلقفهما.. بعد أن يكاد يلتهم الثوب والكتف.. ويملؤها شعور بالحب والعطاء لا مثيل له.. سخي هو.. حتى عند الفطام، كان يمتلىء ثم يوخزها كإبر خفيفة وينفر منه الحليب...

آه يا زمن الألم..

آه يا ساعات حسرتها..

الدقائق تسير نحو فجر يولد..

يأخذ أجمل ما فيها ويمضي..

الأبناء يأتون؛ ابن وراء آخر، وهو شامخ متدفق..

لابد أن تلقي عليه نظرات وداع..

تخلع قميصها. تقف أمام المرآة.. تحدثه عن أيامها الماضية ورحلته معها وبها.. تنحني لتقبله وكأنها تعتذر له عن شيء ليس بيدها مفر منه..

حدثها الأطباء كثيراً.. يقولون لها عن القالب الصناعي الجديد قالب كاللحم نفسه، لن يظن أحد أنها بنصف صدر!

كانوا يرون أن مصدر خوفها شكلها الأنثوي، ولم يعلموا أن هذا الذي يقتطعونه يمثل سفر حياتها..

تنحني لتقبل ثديها الأيسر، كأنما تعتذر له وتودعه.. تشعر أن قلبها سيكون بلا غطاء.. سيكون معرضاً لهبوب الريح، للفح الزمهرير، وجذوة الصيف..

الدمع يغزر ويغسل وجهها وينزل ليغسله أيضاً، كما يغسل الميت قبل الدفن. لا تستطيع أن تنام ولا تطفىء

الضوء.. تستمر مسمرة الناظرين عليه، بضع ساعات ويغادرها.. يرحل بعيداً عنها كيف تَدْفِنُ وهي حية جزءاً منها؟

يا الله. يارب، لماذا عرف السرطان صدرها؟

لم اقتات أجمل قطعة في جسدها..؟

طوال عمرها تكره الحروب. تشعر أنها سطوة الإنسان على الإنسان.. إنها تسرق لقمة الشعب؛ في سبيل حديد لإبادة البشر..

لماذا لا ينتشر الحب بدلاً من الحرب؟

لماذا لا يجلس البشر لبعضهم؛ يسمعون ويتفاهمون بدلاً من تلك الآليات التي تملأ البحر وفضاء الله؟

قال لها الطبيب:- أسباب كثيرة للإصابة بالسرطان. منها الوراثة.

- لكن يا طبيب لم تصب أي من نساء أسرتي قبلي بذلك؟

- ومنها الحروب يا سيدتي..

- وما دخل الحروب يا طبيب؟

- تاتي الحروب بكل ملوثات البيئة، فتقذفها في الأرض ويمتلى بها الفضاء. يستقبلها الجسم، يحاول أن يطردها أو أن يحصن نفسه ضدها لكنها تدخل في ذرات تكوينه، فينبعث السرطان.. ألم تسمعي بهروشيما وفيتنام والصين..؟

- وأنا؟

- أنت وغيرك كثيرون وكثيرات ممن تأثر بالحرب الأخيرة.. هاهي عدواها تنفذ إلى داخلها، تقتنص أجمل ما فيها.. وكأنها يد مسمومة لساحرة لعينة تغتال الأطفال وتحرق الأشجار ثم تمتد إلى الدواخل.!

يارب الكائنات كلها.. وهبت الإنسان عقلاً فاستغله لهدم الأرض...

الليلة الأخيرة، هي وهو.. إثنان في ليلة وداع.. وغرفة كئيبة باردة.. جعلت تكلمه. تحكي له أسفارها وأيامها. أفراح حياتها ومنغصاتها، وأياد كادت يوماً أن تكسر شموخه!!! فكسرتها بأنيابها..

ليلة أخيرة..

بقايا ليلة..

ساعات وتشرق شمس ليست كالشموس التي

أحبتها.. شمس صفراء تحرق كبدها، وتمتد يـد الجـراح حيث تزيل أجمل حب في حياتها.. تخلع ثديهـا الأيسـر، ويبقى قلبها مكشـوفاً بـلا غطـاء.. لـلريح والصقيـع والهاجرة..

ليلة أخيرة.. ورفيقها سيؤخذ بعيداً عنها.. شـيء كالجنون ينتابها.. تتمنى أن تتسلل مـن الغرفـة البـاردة للخارج.. وأن تصرخ بملء صوتها لتوقظ النائمين، تبلغهم بأن الحرب اغتالت حبيبها وأن الحرب تسرق أجمـل مـا فيها.. وأنها ستبعث رسالة للأمم المتحدة تطالبهم بثديهـا الأيسر.. فكرت أن تخرج عارية للطرقات.. تنثر شعرها وتطلب من الجميع توديع حبيبها.

السرير سجن لها... والغرفة سجن، والمرآة تخرج لها ألسنة من نار... هاهي الشمس.. تشق وجه السـماء.. ترسل شعاعها الأول..

تتهالك على الفراش كما هي عاريـة الصـدر... يدقون الباب لا تجيب، يدخلون، يحملونها، يغرسون إبـرة في ساعدها..وتمتد أيديهم لتقتلع أجمل جذر فـي حياتهـا، روحها الكئيبة تغادر الجسد المسجّي، تنظر من علو، ترفع يدها لتودع ذاك الجميل في العلبة الزجاجية..

* * *

محمد علي الشيخ

- من مواليد ١٩٤٧ (السعودية). أصدر مجموعتين قصصيتين: العقل لا يكفي (١٩٨٢)، رحلة البحث عن الشمس (١٩٨٤).

الوشم

يا معشر قومي.. يا معشر قومي.. خذوا فساتينكم وعطركم.. وشعركم ونثركم.. فوالله لو وضعتم الذهب في يميني.. والفضة في يساري.. على أن أدخل مخدعي ما دخلته. إني راحلة...

وفي هذا الليل الوحشي الذي ينتهك حرمات وجوهكم ومدنكم وأزمنتكم أقول لكم: أما والذي مكن لكم على الأرض: وقد تاه طريقكم... وضاع رفيقكم... ونأى جواركم، فإني استفتيت ولدي التي تملؤون دفاتره

المدرسية... وحللت شعري... وحزمت أمري. يا معشر القوم: ستبحثون عني في الخرائب المسكونة وقد اغتصبت أساوري وقلادتي الذهبية... تصطدم جماجمكم الصلبة بحجر مرمري... تنشغلون بالبحث عن الكنز... يحين أوان الخروج الثالث!! أحمل هويتي وخريطتي... أطرق الأبواب وأقف على مفاصل الطرق.

في كتاب الحواديث: صاح كبيرهم يا امرأة!! وامتشق أبيضاً مهنداً. نحمي الدار... ونرعى الجوار... ونقري الضعيف. يا ابنة المشرقي... يا ابنة المغربي: إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد.

"هه يا رجال" – "أيوه هه"!!

انتهت حواديث الكتاب. أرخها:-

أبو الحسن سعيد بن كريم بن صقر البصري

غفر الله له ولإخوانه من الأنام العربي.

يفردون الرداء الأسود: طويلاً. عريضاً... منبسطاً... منبعجاً: كالليل يبحر في كثبان الشمال. يأخذون زينتهم عند كل النساء ويمرون واحداً تلو الآخر... وعندما لا يعود تمييزهم ممكناً تلمح مقابض الخناجر على ظهور

الرجال واقفة كنصب القبور. فتمتد يدها للوشم المختبىء في طيات سنوات عمرها وخصرها... وعين أمها.

السفينة آتية؟! تكتمل دورة النفي للسلالة العربية على الشواطىء العربية!! أم العاديات... فالموريات... فالمغيرات ليلاً؟!!!

يتآكل الوطن: قطعة... قطعة... وينحسر عن القبيلة والشريعة والمكان. تتلى المزامير جهاراً... وتشمخ الصراصير نهاراً. أفلس زمانهم... وصمت كتابهم... وتبدلت أسماؤهم.

يارب

لك التسابيح الخاشعة وحدك أنت

لا تترك الخيول نافقة

والسيوف مثلومة قانعة

أهوي من المئذنة

أموت واقفة مكبلة

ولا ينحسر القميص عن الوشم...

وجاء رجل من الوادي قال: قتلت عربياً... والقوم

فئتان: بغت إحداهما على الأخرى... تحمي هودج الفارس... الفرس يتقدم... الفارس يسطو على الوشم... تتقدمه عروض الزينة. حمالك الإله يا سيدتي. الطوفان قادم... وزمنكم الجاهلي قادم... والفارس قادم.

شد الإله أزرك بأخيك يا سيدتي. بعض القوم سطا على أناشيدهم وشمسهم... وبعض القوم لا قبور لهم... كوم عظامهم تحت جبل النفط... وسرق النفط. وسألت أمك المغربية أباك المشرقي كم مات واستراح؟!!

ألم تقرئي صحف الصباح يا ابنة العم.

يعدل الفاروق... ويبحر ابن زياد... ويحج الرشيد... ويتحدث الأئمة. وتفيض الأنهار بالماء العربي... بالعشب العربي في الزمان العربي... على المكان العربي.

تستوي ظهور الخيول.

ترتفع هامات السيوف.

وتنصت الصفوف للكلام العربي.

وتنبت المدن على جبين الثقة... وتعانق حناجر الصغار أناشيد بلادي بلادي في لحظات الأمان.

تقصر مسافات الخطو في الدروب الضيقة الملتحفة بالأردية السود... وتصبح العيون قلقة كسكين الغازي. تتهاوى الجسور المكتظة بالعابرين... يرقص الموت على إيقاع الرياح... وتعوي الذئاب في موكب جنائزي.

ماذا يحدث؟!!! الحقيقة ما يحدث. القلعة المشدودة على رؤوس الحراب تهاوت... واختلط نباح الكلاب الجائعة بخوار البقر بصهيل الجياد.

يا معشر قومي: سآخذ زينتي عن كل رجل... وأكشف سر الوشم... وأمسح من الذاكرة قصص البطولات الممتدة من مشارف الجبال إلى أطراف الحقول إلى مدن النفط في صمت ملحمي طويل.

★ ★ ★

ثريا البقصمي

- من مواليد ١٩٥٢ (الكويت)، أصدرت ثلاث مجموعات قصصية: العرق الأسود (١٩٧٧)، السدرة (١٩٨٨)، شموع السراديب (١٩٩٢).

زيتون أخضر

جلس القرفصاء.. متلفعاً بمريوله الأبيض، يرص المعلبات على الرف المعدني، ويدندن بلحن أغنية شعبية، جلسته كانت مريحة بالنسبة له. لكنها تسببت في مضايقة زبائن "السوبر ماركت" الذين كانوا يتحاشون ركله، كلما مروا من خلفه. فمؤخرته السمينة كانت تحتل جزءاً من الممر الضيق المكتظ بالبضائع، وكلما شعر بمرور زبون من خلفه، اضطر أن يعتذر، بصوت تغلب عليه رنة المرح، وبروح رياضية يزيح مؤخرته، وينقلها لاتجاه

آخر، لكي يتسع الممر لمرور الزبائن القلقين المصابين بهوس العجلة في إنجاز عملية تبضعهم.

صاحب "السوبر ماركت" تميزه جثته الضخمة، ووجهه العابس. في العقد الخامس من عمره. له تقاطيع جبلية وعينان متوحشتان محاطتان بحرائق الشيب التي تغزو شعره. أصابعه الغليظة تدق بعنف على أزرار الآلة الحاسبة، يتسلم النقود من الزبون، وهو يرسم ابتسامة مزيفة، يلحقها بنفخة مشحونة بالقهر بسبب "صبيه" المستهتر الذي أعاد ترتيب المعلبات أكثر من عشر مرات، فهو يعتقد بأنه مهووس ولديه أفكار غريبة، لأنه يخطط لرصها بطريقة عملية، تساعد الزبون في الاختيار. فحسب اعتقاده، لا يجوز وضع معلبات التونة بجانب البازلاء؟!! فهذه من عائلة بحرية وتلك تنتمي لعالم الخضروات؟ وهذا العامل اللعوب يتعمد قضاء يومه أمام رف المعلبات تهرباً من عملية تقطيع لحم الخراف. لقد استلم صاحب المتجر هذا الصباح ثلاثة خراف استرالية، وهي معلقة من أرجلها، تترنح داخل الثلاجة الضيقة، تنتظر من يقوم بتقطيعها، وبيعها للزبائن القاصدين متجره، المؤمنين "بلحمته الحلال" فمنذ أوائل الصيف، علق يافطة أنيقة، تخاطب عشاق اللحم "يسر محل الوادي الأخضر أن يعلن

لزبائنه الكرام، عن وصول لحم خراف استرالية"، "لحم حلال ذبح إسلامي".

كان لابد له أن يهز ذلك الماء الراكد في داخل صبيه الكسول.

- يا حسام "خلصنا" يابن الحلال "يومك بسنة".. هل ترص قوارير عطر في غرفة عرسان؟ هناك ثلاثة خراف سمينة تنتظرك. سوف نخسرها إذا لم تقطع وتباع اليوم، الزبائن يسألون عن اللحم الحلال!!

حسام ينهمك في رص المعلبات، غير مكترث بالحملات الهجومية التي يشنها عليه صاحب "السوبر ماركت" والذي ذكره أكثر من مرة بأنه عامل وليس بجزار، وتقطيع اللحم يصيبه بالغثيان، فمنظر الدم المتخثر والساطور يهشم العظام، ورأس الخروف، بلسانه الأخضر الممتد من بين أضراسه المتفرقة، وعينيه المحولتين، إنها البشاعة في أكمل صورها.. لقد قدم اقتراحاً عملياً لصاحب المتجر.

- يا معلمي اطلب من المسلخ أن يبيعوك الخراف مقطعة.. ولتخصم تكلفة تقطيعها من راتبي.. أرجوك اعفني من هذا الأمر. هل تريدني أن أستفرغ على جسد خرافك الحلال!!

لكن "معلمه" كانت إجابته حادة، وتفوح منها رائحة السلطوية:

أنت ولد "دلوع" يا حسام. الرجل لا يخاف الدم والساطور، "يخرب بيتك" النساء الجبليات عندنا تسليتهن اليومية تقطيع اللحمة، ودق "الكبة النية" وأنت تخاف من الدم والساطور وعيني الخروف الميتتين.. عليك أن تحاول وأن تعتاد الأمر، ولو أنك لم تهرب من الجندية، وتلجأ لهذا البلد، كان الجماعة عندنا ربوك تربية "شوارب" بعدها كنت تقطع لحم البني آدم وأنت تضحك؟

***

"زيتون شبرد بوش" أرخص من زيتونكم، شاب أنثوي الملامح، شاحب اللون أطلق هذه العبارة وهو يقلب علب الزيتون.

حسام رفع رأسه للأعلى، ليطل عليه الوجه "البنوتي" ويعيد تساؤله السابق:

"زيتونكم غالي جدا.. زيتون "شبرد بوش" أرخص بكثير".

ملحمة الخراف المتراكمة في داخله، فجرها في وجه ذلك المخلوق الرقيق.

وإذا لم يعجبك سعر زيتوننا يا "أغــا" يمكنــك أن تعود لزيتون "شبرد بوش" فنحن لا نغصب أحــدا علــى شراء ما لا يعجبه، - تابع هامساً - كما لا يمكــن لذلــك "الثور" أن يغصبني على تقطيع خرافه!!

امتص الشاب غضب "حسام" بإجابة مدثرة بنبرات هادئة تخلو من التشنج:

- آسف لغضبك، فا.. شبرد بوش منطقــة بعيــدة عن مسكني، ثم أنا أعاني ولديّ مشكلة.

تربع حسام، بل فرش الجزء السفلي مــن جســده على الأرض الباردة، تاركاً رف المعلبات.

"يبدو أن الموضوع مسل جداً". "حرام" لقد جرحت شعوره، "فرصة.. سأضيع الوقت بالحديث مع هذا المــائع الرقيق، وليشو معلمي خرافه الثلاثة لعشائه!!"

- ما هي مشكلتك يا..

- اسمي "ثامر" يقال أن والدتي كــانت إنكليزيــة "ضحك بدلال" لقد ورثت عنها سحنتي الأوروبيــة، لكــن والدي عربي لم يورثني أي شيء سوى اسمه أنــا لســت مشرداً أو لقيطاً والعياذ... "العياذ بالله" لدي أسرة وإقامــة دائمة وأوراقي الرسمية كاملة وأتلقى معونة من الحكومــة البريطانية.

* إذن أين المشكلة يا "أمّور"؟

لقد لجأ إليّ منذ شهر شاب تونسي جاء إلى لندن يبحث عن فرصة عمل وهو مثقف جداً، ويقيم حالياً لدي، حتى أعثر له على عمل، إنه دودة كتب يقرأ بنهم شديد، ولقد تطوعت في ترتيب أموره مع مكتب الهجرة، والبحث له عن عمل، والمشكلة أن دخلي متواضع ولا أستطيع أن أعيله لمدة طويلة، مع أن المسكين أكله قليل، يستطيع أن يعيش على الخبز والزيتون، وهو من عشاق الزيتون الأخضر، ابتعت له بالأمس زيتوناً رخيصاً من سوق "شبرد بوش" أكل منه ثلاث حبات، ثم عافه، لأنه يعتقد بأنه يحمل شكل الزيتون، لكنه دون "طعم" ولا يساوي ظفر الزيتون التونسي. يخيل إليّ بأن زيتونكم عربي.. ربما كان هذا سبباً في غلائه!!

رفع حسام صوته مخاطباً صاحب السوبر ماركت:

- معلمي.. معلمي.. ما جنسية الزيتون الأخضر الذي على الرف الثالث؟

جاءته إجابة مشحونة بالغضب "أخ منك ومن ألاعيبك ياحسام؟" هل الزيتون فيه جنسيات؟.. الزيتون "إسرائيلي" والخروف الذي ينتظرك استرالي!!

ثامر الأشقر لم يلمح نـــبرة الغضـــب الممزوجـــة بالسخرية في صوت المعلم، لكن كلمة "إسرائيلي" لم ترق له، خاطب نفسه بصوت هادىء وهـــو يغـــادر المكـــان، "الرجل مثقف قومي عربي حتمـــا لـــن تعجبـــه جنســـية الزيتون، يجب أن يعتاد حياته الجديدة.. يجب أن يتعلم بلع زيتون شبرد بوش".

★ ★ ★

محمد حمد الصويغ

- من مواليد ١٩٤٥ (السعودية)، أصدر ثلاث مجموعات قصصية: ناندا (١٩٧٨)، المسحوق (١٩٧٩)، الخلاص (١٩٩٣).

مفارقة..

وفي زاوية معتمة من زقاقها الضيق ينتظرها "الشاعر" بلهفة وتوق كبيرين.. علها تطل من شباك غرفتها.. أو تلوّح بمنديلها من على الشرفة.. أو تتعتق من إسارها فتخرج من البيت ساعة ليلاحقها كالعادة.. فتصفعه على صدغه.. أو ترميه بحجر.. أو تصرخ فيجتمع الناس من حولهما.. كالعادة.

غير أن شيئاً من هذا أو ذاك لا يحدث فماذا جرى؟

إنه مشتاق لصفعة من كفها الثقيل.. أو حجر تهوي به على أم رأسه فيعود من حيث أتى مجروحاً مهزوماً.

وبعد طول ترقب وصبر تخرج من منزلها.. فيلاحقها:

- ماذا تريد مني أيها الأحمق؟

- لا تسأليني عما أريد.. يكفي أن أراك كل يوم.. وأتحدث معك.. لماذا تصرين على الابتعاد عني كلما اقتربت منك؟

- أنت أبله يا هذا.. أغرب عني.

وتهوي بكفها الثقيل كالعادة على صدغه فيترنح من الاعياء.. ويسير بخطى مهزوزة لا يلوي على شيء.. بينما تغيب هي من أمامه كالزئبق داخل زقاقها المعتم.

كانت كلما ضربته أو شتمته أو ذرّت الرمال على رأسه وولت هاربة يرفع رأسه فإذا برجل بدين أسمر يتطاير الشرر من عينيه وقد تملكه الغضب فيعالجه هو الآخر بلكمة قوية على فكيه أو بركلة يسددها إلى جسمه الهزيل كيفما اتفق.. صارخاً في وجهه:

- إذا رأيتك مرة أخرى تتحرش بها فسوف أفصل رأسك عن جسدك.. أغرب عن وجهي.

ويندب "الشاعر" حظه التعيس معها.. إنها رائعة الحسن.. عذبة الحديث.. رقيقة.. رغم تعاملها الوحشي معه.. لكنه راض بما يصيبه منها.. فلابد أن تشعر بحبه يوماً وترأف لحاله، هكذا كان يمنّي نفسه.. غير أن ما يعكر صفوه ويقض مضجعه هو هذا الرجل البدين.. فلماذا يكيل له الصفع والركل كل يوم؟ لماذا يحشر أنفه فيما لا علاقة له به؟

وتمضي الأيام بالشاعر على هذا النحو.. كلما حاول التقرّب منها عالجته بالصفعات والإهانات فيأتي الرجل البدين ليكمل ما بدأته هي.

وفي يوم أراد "الشاعر" أن يستجلي ما غمض عليه.. وأن لا يغرب عن وجه هذا الرجل إلا بعد أن يعرف الحكاية.

جاء دور الرجل فعالجه بالركلات والصفعات المعهودة وصرخ في وجهه كالعادة:

- إذا رأيتك مرة أخرى تتحرش بها فسوف أفصل رأسك عن جسدك.. أغرب عن وجهي.

- ناشدتك الله يا هذا.. أنت في كل يـــوم تذيقنـــي أصنافاً من العذاب فما علاقتك بالفتاة؟ لماذا تتدخل في أمر لا يعنيك؟ لماذا تحشر أنفك فيما لا علاقة لك به؟

- لماذا أحشر أنفي؟ إنها زوجتي يا أبله.

★ ★ ★

منيـــرة الغديـــر

- (السعودية)، نشرت العديد من القصص في الصحف والمجلات. تعد لإصدار مجموعتها الأولى.

الكسوف الأخير

كانوا يفيقون قبل أن تطلع الشمس ويشربون القهوة مع الضياء.. أيد تداعب الرخام البراق وحناجر تحن إلى دفء الفضة النازلة من السماء؛ بينما الهواء ينقش أرواحهم بغيوم الراحة. وحين ينزلون إلى المدينة يجمعون من أشكالها النحاسية قُرباً من عوالم لا ترى.

نورها يطعم أسقف المدينة ويستقر في ذكرى المآذن. كان الأسلاف يهذون بزخرفها والرعاة يحرسون قسوتها.

وحين تدخل البيوت تضحك لحراس العزلة تحت عتبات الأبواب؛ وبأعشاب رفيعة ترسم حروفاً على الزوايا ليقرأها أهل الحكمة أسماء نور.

تتحرك العين. يشع الكون بذكرى الأباريق. تضيق الحدقة وتجتمع في أصيص الزهرة. أقحوانة عالية؛ كل يتخيلها وهي في عينه تطعم أسماكاً براقة. تسري تحت أقدام الرعاة تراباً وهاجاً فيمشون معها وإليها.

تشرق في عين الرائي ورقاً أخضر. وعلى مرأى المدينة تلمّع شعر الصبية حتى تذوب في الحدقات ضحكة ومؤامرة:

- نظرة أيتها المضيئة حتى لا نغرق.

في استمرار اللحظات هي اسم واصف. اسم يصف الممالك المندثرة في قلاع المدينة القديمة؛ يحمل تاريخ مدائن النور لكن المدينة الجديدة تتجاهل سجايا الضياء وسطوته المرئية إلى أن حل أمر كوني مكتوب على صحائف أحدثت عتمة وأنذرت بالسوء:

بمشيئة القيوم؛ تتعرض الشمس إلى حالة كسوف جزئي في المناطق الواقعة في شبه ظل القمر. تُشاهد فيها الشمس على شكل أقحوانة كبيرة تصعد بأسرارها. في

البدء تدخل الشمس في خزانة الغيب في شبه ظل معتم ثم يخفت ضوؤها في الغياب التدريجي.

ستحتجب الشمس عن الصحراء. الشمس صحراء حارقة. شاع الخبر كظاهرة فلكية لكن أهل المدينة استقبلوه كعلامة تفترض التأويل. وكانت هناك امرآة وحيدة تجلس أمام ضوء فانوس محاط بحفيف شجر يغوص في الظلمة. امرأة تكتب مشاهداتها في فضاء معتم:

هي الجملة الأولى؛ لا أرى السطر؛ كيف أكتب الشمس وهي تخلع عنها الحلي؛ شمس تدخل حنجرتي وتصبح لغة تهمس بالداخل؛ حشرجة الضوء تطعمني الذكرى:

على حافة جرح الولادة أعطتني أمي صفة الشمس، جرح زجاج مشمس أعطتني شمساً لتجعل اسمي صفة لها؛ من منا تصف الأخرى، أجلس في العتمة والحجر المضيء مهدد بالإنطفاء. شمس ثملة بأطراف الأوصاف المعلقة. سأصعد طبقات الضياء حتى نظامها الشمسي وأتبع كلاماً يسقط في مسار المنظور؛ كلام لا يقول ويلفحه الحريق كلما حاول وصفها.

تحرك المرأة ذراعها وكأنها تؤجل اختفاء الشمس. قصاصة أخرى في ساحة المدينة تأتي بوصف ما حدث:

كسوف كلي. هذا الكسوف يحدث ثلاث مرات كل ألف سنة. رماد شارد. وعندما يحدث الكسوف سيُرى قرص الشمس غامقاً؛ فوهة مغطاة بقطيفة سوداء محاطة بهالة مذهبة ومضيئة؛ قلب مثقوب.

همهم أحد المارة الثملين بنورها:

- الشمس كاسفة وهذا نصيب الصحراء. لعلها تختفي وراء الرمل أو مع أطفال الريف.

وهمهم آخر:

- ماذا تظن؟ الشمس لا تستطيع التحديق في وجه هذه المدينة وسيحرقنا غيابها.

بينما المرأة الجالسة بجوار الفانوس مازالت تكتب وهي تردد صفات الشمس:

الشمس تحدق في المرئي؛ تفتح أبواباً وتخرج المحسوس. كوكب بعيد لكنه يصب رأفته في رمانة مفتوحة القلب. شمس تشق حنجرتي وأضيع في صحراء الوصف صفات تستحم على ساحل توحي لي بلغة نصف مضيئة. الشمس تختفي في النصف الآخر من الملكوت. سنقول أن الليل يرخي ظلامه. إنه البدء بتسمية الأماكن

المظلمة. كسوف ينتظره وصف، ستطلق الظلمة أشـباحها فيه وستحدث البلبلة في ليل أجوف، صور فاجعة، أبجدية لعالم الخيال؛ كسوف يتشبه بنسيان واقفة خلفهـا؛ سـأتبع مسار الكسوف الكلي:

صحراء بلا شمس، هامة دامسة، أرض غطاهـا رماد أسود في دوران لحظة؛ بـدأت تغمـض عينيهـا، وتشرب من نهر السواد حقول عباد الشمس تحدّق طويـلاً في سمات الطين.

أخذ الفزع يسكن قلوب أهل المدينة وما يحيط بها من رمال. لا أحد يريد أن يتخيل أن الشمس ستتوقف عن سكب أقراصها الذهبية على وجه النوافذ والمياه.

حين وصفوه قالوا: هذا الكسوف نـادر وهـاهي الشمس لا ترى. وجه محجوب خلف ستار. كان واضحـاً أن كل الكائنات تفكر في الشمس، ولمحهـا نـذرت لـه السجدات. وكانت المدينة أكثر ظلاماً من أي ليلة داكنـة وتعرض أهل البلاد إلى سريان الأوهام والخرافات وغاب الحكماء عن كل هذه المشاهدات؛ ولم يبق إلا عالم مأهول بجلبة الظلمات وكانت الأرواح تصعد، وتصعـد ملتمسـة شيئاً من الضياء.

أما المرأة الجالسة بجوار الفانوس فهي تتذكر المرور الخاطف لبياض؛ يشبه أجنحة الفراشات في الذكرى وبينما هي مأسورة بإيحاءات الوميض كانت تحاول بعناء متابعة الوصف:

كوكب أحمر، كوكب من الليمون؛ كأس يسمي الصباح فترقص له كل الكائنات غبطة تلون البشرة بلسعة الملح ولون النحاس وهاهي محبوسة في جرة طين.

انقطعت المرأة عن ملاحقة طيف النجمة وهي تحدِّق في رجفة الفانوس. لعل الحكمة في غياب المرئي. لا أحد يقدر أن يشاهد ما حدث للشمس أو تخيلها بعد غيابها. لم يستطع أحد أن يصف ما حدث وكأن اختفاءها خطف النظر، وأصبح الكلام لا يحسن الوصف ويتشظى سرد ما حدث في روايات قصيرة؛ مبتورة تأخذ شكل مجموعة أقوال متفرقة، مقاطع غنائية أو شكل السؤال المغمور بالشك.

كل ما قيل علامات ومحاولات للتسمية: زجاجة محطمة من العنق، أغلقت علينا الشرفة وها نحن حبيسون مع قطعان الأبنوس، لم يسقط في قلوبنا فزع بهذا الحجم، إنه اقتراف القصور للإثم. كل ما حدث حطام مرايا على

نسيج أسود، رهبة تنذر بعلامات الساعة، إنه المرئي الذي احتجب.

وهكذا تستمر المحاولات في الروي، وهذه إحدى الفتيات العائدات من هجرة طويلة تنسج رواية الكسوف:

كان ما حدث رؤية منامية أو هلوسة. حلمت أو أنني كنت أمشي في شارع اكسفورد وكانت المساحة غير معبدة بشكل جيد وفيها شيء من التراب وبعض الحصى - لا أدري لماذا شعرت أنني في شارع المدينة الأجنبية - وفجأة رأيتني أشاهد اختفاء الشمس بسرعة هائلة وبطريقة لا أستطيع أن أصفها. وبجانبي شاب أمسك بذراعي وأنا أحاول أن أهبط على الأرض لكي أنطرح مخبئة وجهي. وكأن فعلي هذا جاء بشكل خارق ولا إرادي كما يفعل الناس أمام غارة أو زلزال. وأمرني الشاب بأن أهبط على الأرض مطأطأة الرأس لكنني سمعت صوتا غريباً جعل أذني ترن بانقباض يشبه انقباض الهواء. شعور يشبه إلى حد بعيد ما يحدث لمن يتسلق أعلى الجبل. وعلى الرغم من ألفة هذا الصوت إلا أنه كان يبث شعوراً مزعجاً ومريباً في النفس بل إنه أحدث فيّ شعوراً مليئاً بالغرابة وكان الصوت يشبه صوت زجاجة محطمة من العنق وكانت الرهبة قد امتصت قلبي لأن الصوت كان متزامناً مع اختفاء الشمس في السماء.

باختصار عندما غـابت الشـمس بهـذا الشـكل المفاجيء ولحظة عودتها إلى السماء أحدثت هذا الصوت الغريب والمفزع. وظل الصوت يمضغ سمعي. إنها تجربة حسية.

ويقول نبأ آخر: وهذا النوع من الكسوف نادر في هذه المنطقة والكائنات التي ستشهده ستصاب بحالـة مـن الصمم من ٥ - ٧ دقائق كحد أقصى.

تنتظر المدينة أن يلفها صمت يبعث الهذيان. إنـه مصير أهل المدينة الذين جنوا بالشمس وجنوا بغيابها. لكن هذا الغياب يفترض تأويلاً.

تواصل المرأة الجالسة بجوار الفانوس الإنحنـاء على ورقها وكأنها تواصل تقبيل الحجر الأسود:

طبق من التين تلفه سحابة برتقالية فهناك غيمـة داكنة وكبيرة تهبط على الأرض ليرتاع الخلـق وتحـدث الفوضى في الأرواح. نعش من السنابل محمـول علـى أعمدة ليلة ذات مراثي. ضحى مفتت وظهيرة من صوف وما بينهما خيوط سوداء. بساط الساحرات المحاط بالنـار يختفي. السماء تتوسل لرجفة الوميض وتود أن ترى نفسها في مرآته لتتهيأ لدخول ليلتها باطمئنان.

خشن الظلام وأصبح هذا الجسم الفضائي ملفوفاً بالسواد وعلى أطرافه قطرات ذهب. تحتجب الشمس وكأنها تتافس سرعة ضوئها ليكون احتجابها من أعظم أسرارها. تستمر المحاولات في معرفة مصدر هذا الغياب. وكل يعبر عما رأى بكلام رامز ومجازات تصف جزءاً صغيراً من مشاهد متقطعة. كل وصف يحاول تسمية ما كان. حتى أن أحد علماء الفلك أضاف رواية أخرى إلى هذا السرد الجماعي:

حين احتجبت الشمس خرجت أسراب هائلة من الطيور. طيور لم أرها من قبل في سماء المدينة. حامت الطيور في الفضاء، غربان وطيور سود. وكان الغسق في طرف الفضاء البعيد مغطى بغيمة سوداء مثل دخان حريق هائل. لكن طائفة الطيور المفجوعة هي أول الكائنات التي هامت لحظة احتجبت الشمس بتلك الطريقة المباغتة. وأصبحت المدينة مستعمرة كبيرة مشيدة بالسواد لمدة ساعة وسبع دقائق.

كان الكسوف يروي الرغبات الواصفة، ويحرض الأخيلة على الفرار بشكل سرمدي. الوصف لا ينتهي ويأخذ صيغة أخرى في قصاصة مصدر آخر:

يبدو أن الكسوف تشكل في ظروف مختلفة وفي

مناطق افتقرت إلى النور. لكن القمر لن يستطيع لوحده إضاءة هذه المنطقة المعتمة. ولن تستطيع بعض النيازك والشهب الساقطة من إعادة شيء من الضوء المفقود. وذكر بيان عن وزارة الدفاع أن الشمس التي تحتجب بشكل من الأشكال تسير باتجاه منطقة أخرى وأن رواد الفضاء فشلوا في العثور على مكان احتجابها بسبب انفجارات النيازك في نفس اللحظة. وليس هناك مبرر من عودة هذا الكوكب إلى مساره "الطبيعي" في وقت قريب. ويظل هذا الحدث من أهم المسائل الغامضة حتى الآن عن منظومتنا الشمسية. وينصح العلماء بأن بالإمكان استخدام الأوكسجين لأغراض التنفس لمساعدة سكان المستعمرة وللنساء والأطفال على وجه التحديد بعد أن شاهدوا ما شاهدوا. ويعكف الباحثون على إعادة الشمس من مخبئها في خلال الساعات القادمة.

في ذلك الاختفاء جرت النساء وكن يحملن صغارهن وهن ملتفعات بسواد الفضاء، وكأن هذا الفزع لم يصبهن من قبل.

– طمسوا قلوبنا. إنهم أحدثوا كل هذا بإطلاق الوشاحات في الصحراء.

إنهن فجيعات بموت شمسهن ونزولهن في خمار

غيابها المفاجيء. ثكلات وأرامــل صغــيرات حبســتهن الظلمة في بحرها. ابتهلن إلى الإله أن يشفى أرضهن من هذا الظلام. يبكين على ضياع كل السبل في إبقاء حفنـــة نور أو رجفة سراج في هذه الحالة الدامسة.

وظل صياحهن وولولتهن تقضان سبات الملكــوت وهن في طواف حول قطيفة سوداء:

- يارب الأرباب أين شمسك.

- يارب الأرباب شمسك طريق الحق، ومصـــير القلوب إلى حريقها الجماعي.

والمرأة الجالسة بجوار الفانوس تكتب مقطعاً آخر وتنظر إليّ وكأنها إشارة روحية لنفسها الملتمسة للبريق:

من اين تُخرج الشمس كل هذه الفجيعـــة، البكـــاء الذي يفتدي النور يزيد الخشية ليعلو ذهول الكائنات موقظاً الممالك المطمورة في تاريخ الأرض. قلمُ أعمى يصـــف الظلال وغمضة العين في الغفوة، حجر أسود فوق أصبع زجاجة محطمة، ظلمة تشق حنجرتي وأضيع في صحراء الوصف.

تحرك المرأة يدها وترفعها فـــي وجـــه الورقـــة، محدقة فيما تكتب فلم تر شيئاً فيه فأدركت أن ما شيّدت من

أوصاف أسلم نفسه لفضاء مجوف فبدت ضائعة النظرة في الفانوس الذي بدأ يبهت، وبخفة تضيع قصتها بين حفيف الروايات وجلبة الأخبار الخارجة من جوف الظلمة.

ويبهت الطيف الأنثوي ليختفي في العتمة، وكأن ما حدث استغراق في غياب الرائي.

★ ★ ★

محمد علوان

- من مواليد ١٩٥١ (السعودية). أصدر مجموعتين قصصيتين: الخبز والصمت (١٩٧٧)، والحكاية تبدأ هكذا (١٩٨٣).

بعد الحلم

يطول الحديث يا أصدقائي القدامى.. يأخذنا إلى طرق لم نسلكها، ها هو الماء يدخل.. ونبضات القلوب تتسارع.. وها هو سيد المكان يبسط الحلم، يفسره، يخرج إلينا الحلم لحظتها جميلاً، نخرج من الحلم إلى الواقع فإذا بالظلام يكتنف الشارع.

الأصدقاء يمتطون العربات حيث تضيء مصابيحها العتمة تبددها فتبدو السيقان من خلف الثياب، هاجس من خوف إنساني يسيطر، إلا أن فرح اللحظة

ينساب، يدوي ضحك مرتفـــع ورغبـــة فـــي الاســـتعجال لاستمرار اللحظة، ماذا يبقى في الذاكرة المتعبة، ها أنـــت تخرج ممتلئاً بفرح عذب، وأغنية مشتهاة.

حين امتطيت العربة، اتجهت إلى القلـــب، وكـــان الطريق طويلاً حيث أوقفتني ســـبع إشـــارات ضوئيـــة، ومنحتني سبع أخرى إيقاع الحياة، إلا أن الأخضر ســيملأ الصحراء.

لماذا قطبت جبينك؟ لا تمتعـــض. هـــل فســـرت الأشياء؟ انظر ليس إلى البعيد. انظر كفك هل تجلـــو الآن خفاياها؟ قد تجلو. اللعنة على تفسير الأشياء.

قلت: امتطيت، أعني.. العربة. شاهدت رجلاً من على البعد. لم استبن ملامحه. ماذا يخفي في القلب. هـــل يترك أطفالاً. تجشأت، لا أجد معي في العربة. أجائع هو؟ هل يحمل في الصدر هدىً للقادمين؟

رغم الضوء الصارخ "قف" تعبر عـــبرة رســـمية بهدوء قاتل. وراء الرجل تقبـــع حقيبـــة. ووراء الرجـــل الواقف فوق الرصيف ســـور لأرض، قـــل وراء الأرض تقبع منازل جميلة، المنازل تحوي فيما تحوي أسرة، وفوق الأسرة إن وجدت، يتمدد إنسان يحلم بالأمان، ترفع مـــن

فوق الكتفين الأسوار، يحلم بأن ينبت شجر لا يموت، وأن، وأن...

أقول: وراء الرجل تقبع الحقيبـــة ووراء الحقيبـــة جدار حجري خلف جدار الحجر تنتصب منازل مملـــوءة بالناس والأحلام، ووراء ذلك كله تنتشر الصحـــراء، إلا أن هذا الرمل هو الغصة الأولى تقول لي الريح شيئاً: سيبدو لك البحر أما صبرت ويبدو لك الصبح أما انتظرت.

يقول لي الموج شيئاً: ها أنا البحر والخلجان.. وها هو الصياد ينثر قلبه. قبضة الرزق المشاع تمسك، سيصيد حتماً لأن الصياد قرر.

الرجل لايـــزال واقفـــاً خلفـــه الســـور والمنـــازل والصحراء. لكن.. خلفهم البحر.. مليء بالنوارس والقوارب وابتسامات كبيرة، الرجل اللابس ثوباً أسود قد يسمح للوجه القمحي مساحة الرؤية، يضـــع فـــوق الـــرأس المملـــوء.. بالفرح.. الخيبة.. بهموم الأفواه.. باللون الأخضر.. يضـــع الغترة البيضاء.. يقف الآن تحت الجسر الموصـــل بيـــن طريق وطريق. خلف الظهر.. تقبع الحقيبة.. قد تحمل في داخلها ثوباً أسود آخر.. ثوباً لامرأة يعشقها كتاباً.. قارورة عطر.. ســـراً يوصله للأشـــياء.. خلـــف الحقيبة.. يقبـــع

السور يحمي الأرض من سطوة الشارع.. بقيت الأرض سجينة الأسوار والطرقات.

الضوء مغلق

فجأة.. سمعت صوت الأبواق - في هدأة الليل تستحثني على المسير.

جلت بنظري باحثاً عنه.. فقد قررت منذ اللحظة الأولى أن أحمله.. غريباً.. في طريقي.

الرجل سار بحقيبته وأسواره ومنازله سار بالصحراء ساروا جميعاً إلى البحر.

سرت إلا أن ذلك كان متأخراً بعض الشيء.

★ ★ ★

سليمان المعمري

- من مواليد سلطنة عُمان. نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات. يُعد لإصدار مجموعته الأولى.

على من أضاعوا أسماءهم فلتبتهن البكاء

جميل هذا الصباح.. هادىء كعاصفة نائمة.. دافىء كأنفاس الشمس.. له نكهة مميزة تختلف كثيراً عن نكهة الصباحات الخمسة التي سبقته.. صباح كهذا كافٍ لإقناعي بقتل عصفورة النوم المعششة في عينيّ.. سأستيقظ.. ها أنا استيقظت.. سأستحم.. ها أنا استحممت.. ها أنا بالفرشاة أدغدغ أسناني المتسوّسة.. ها أنا أخبىء جسدي النحيل في الدشداشة الحليبية.. ها أنا أضمّد رأسي الثقيل بالعمامة المزركشة.. ها أنا أستعد للخروج.. اليوم

سأستغل إجازتي استغلالاً نموذجياً.. سأتسكع كثيراً.. سأحلّق هنا وهناك كفراشة ملكت أخيراً زمام حريتها.. سأمزق خريطة خمسة أيام من السأم وأُلقي بقُصاصاتها على أرصفة الشوارع، ومداخل الحدائق العامة، وفي جوف المجتمعات التجارية، وعلى رمال الشاطىء.. كم أحبّه هذا الذي اخترع الإجازة.. إنها الفرصة الوحيدة للخروج من عنق الزجاجة.. الفرصة الوحيدة للإنعتاق.. لإعادة ترتيب الأوراق.. لرؤية العالم من زاوية أخرى، وبأعين أخرى غير مفقوءة.. الآن سأخرج.. ولكن هل نسيتُ شيئاً؟!.. لا أريد أن أعود إلى هذه الغرفة قبل الظلام.. لأتأكد؛ سأتحسّس جيب الدشداشة.. هذا هو القلم.. وهذه هي الورقة البيضاء التي عادة ما أحتفظ بها في جيبي تحسباً للحظات شعر قد تأتي.. وهذا هو المنديل.. وهذا هو "البيجر".. وهذه هي بطاقة التليفون.. وهذا هو الريال الذي استدنتُه بعد معركة ضارية راح ضحيتها ماء وجهي.. وهذه هي حبات الـ "فروت تيلاّ" التي سألوكها آن يلوكني الملل.. حسناً.. يبدو أنني لم أنس شيئاً.. الآن سأخرج.. ها أنا أضع رِجْلي اليسرى خارج الباب.. الآن سأضع اليمنى.. ما هذا؟!.. لماذا ترفض الرِجْل اليمنى الخروج؟!.. هذا مؤشر على أنني نسيت شيئاً مهمّاً..

سأعود إلى الغرفة من جديد.. ها أنا عدتْ.. ها أنا أمسح أنحاء الغرفة بعينيّ لأتذكّر.. آه.. يا إلهي.. الآن تذكرت.. لقد نسيت شيئاً مهمّاً للغاية.. نسيت اسمي.. لـن أسـتطيع الخروج بدونه.. إذن لابد أن أتذكر اسمي أولاً:

- أنا اسمي.. اسمي.. اسمي محمّد

لا.. اسمي يوسف

لا.. لا.. اسمي قيس

لا.. لا.. لا.. اسمي مُعاذ

لا.. لا.. أنا اسمي مريم

أوه.. لا استطيع تذكر شيء.. ماذا سأفعل الآن؟! لابدَّ أن أخرج.. أنا بحاجة ماسّة إلـى وشْوشـات النـور الحميمية.. النور دائماً في الخارج.. لا نور في الداخـل.. بل برد ووحشة.. إذن لابدَّ أن أخرج.. لكن الكارثة أننـي لن أستطيع الخروج بلا اسم.. كما أنني لا أملك مالاً كافياً لشراء اسم جديد من أقرب بقالة.. مـاذا سـأفعل إذن؟!.. سأحاول أن أتذكر اسمي.. لا حلَّ آخر.. سأعدّ لنفسي كوباً من الشاي.. يقولون إن الشاي منبِّه للعقل ويسـاعد علـى التذكر.

ها أنا شربتُ الشاي.. هاأنا خلعتُ العمامة لأتيح ظروفاً ملائمة للتذكّر لرأسي الشاغر إلا من شياطين تلقّن المخيّلة شهوة الحمق.. ها أنا ألقيتُ بجثتي على الكرسي.. ها أنا أخذتُ نَفَساً نفساً عميقاً.. الآن سأتذكر:

- أنا اسمي... اسمي... اسمي...

أوه.. مرة أخرى لا أستطيع التذكر.. يبدو أن التسوّس انتقل من أسناني إلى ذاكرتي.. ماذا سأفعل الآن؟!.. هل سأستسلم؟!.. لا.. مستحيل.. الضعفاء وحدهم من يستسلمون بسهولة.. سأجرّب طريقة أخرى.. سأعدّ إلى العشرة.. لابد أنني سأتوقف لا شعورياً حين أصل إلى الرقم الدال على عدد حروف اسمي:

- واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. ستة.. ستة.. ستة.. ستة

رائع.. إذن فعدد حروف اسمي ستة.. هذه بداية موفّقة

- هذا يعني ان اسمي ليس محمد

ولا يوسف

ولا قيس

ولا معاذ

ولا مريم

فلأبحث عن اسمي إذن خارج هذه الدائـــرة مــن الأسماء.. ها أنا آخذ نَفَساً عميقاً من جديد.. ها أنا أبحث:

- أنا اسمي... اسمي... اسمي...

تبّاً.. لا أستطيع تذكر شيء.. كم هي عجيبة هــذه الذاكرة البشرية.. أحياناً تكون كهفاً محتشداً بالتناقضـــات، مستعداً لأن يحوي كل شيء وأي شيء.. وأحايين كثـــيرة تستحيل فضاءً سرمدياً مكتنزاً باللاشيء.. نحشوها ســاعة التُخمة بالأحلام المطرّزة بالشفافية، والنساء المضرّجــات بالخصوبة، والطحالب المترعة بالعشق، وعبارات الغــزل المنتقاة بدقة، والشموع الليلية الباسمة، والذهب، والفضة، واللؤلؤ، والمرجان، وأنهار العســل المصفّــى، و... و... و... وحين نضطر أن نطلب منها - مدفوعين بالجوع - أن ترد إلينا وديعتنا ترجمنا بالقباقيب، وتدفننا وسط خرائب النسيان.. ألا سُحقاً أيتها الذاكـــرة المأفونـــة، المهووســة بالخيانة، المنسولة من الزيف.. ألا إنك لو كنـــتِ رجــلاً لقتلته.. ألا إنك لو كنتِ امرأة لمـــا اشــتهيتها.. ألا إننـــي سأنتقم منك.. سأستعدي عليك جيوش الجنّ والشـــياطين..

سأوعز إليهم أن يخترعوا وسائل للتعذيب لم يسبقهم إليها أحد.. الآن سترينهم أيتها المارقة حين يبغتونك كالموت.. مردة عمالقة يجيدون فنون القتل، ويتقنون لغة الانتقام.. لهم هيبة النسّاك، ونزق القتلة المأجورين.. الآن سيفجؤونك وهم يحملون شحنات إضافية من الغضب، كجدّي حين يقطع عليه صلاته صبيّ مشاكس.. آه جدي.. لماذا لا أذهب إليه وأسأله عن اسمي؟!.. فكرة رائعة.. الآن سأنفّذها.. ها أنا أنتشل جثتي من الكرسي.. ها أنا أعاود تضميد رأسي بالعمامة.. ها أنا أتوجه ناحية الباب.. ها أنا أتوقف فجأة.. أنا لا أحب جدّي.. ثم إنّي لم أره في حياتي ولا مرة واحدة.. كل ما أعرفه عنه - عدا غضبه ممن يقطع عليه صلاته - إنه توفي قبل مولدي بسنتين.. وحين ولدتُ قرر أبي أن يسمّيني باسمه وفاءً لذكراه.. أذكر ذلك جيداً.. كما أذكر أنني رفضت القرار وصرختُ محتجّاً:

- واع.. واع.. وااع

لكن أبي لم يأبه لاحتجاجي.. هو يريد أن يكون وفيّا لأبيه على حسابي أنا.. لكنه نهرني قائلاً:

- جدك أطلق عليّ اسم أبيه فلم أعترض أو أنبس ببنت شفة.

أدركت ساعتها كم نحن البشـــر بؤســـاء. حتـــى أسماءنا التي ســـتلازمنا - كدموعنـــا - طـــوال العمـــر وستلتصق بنا التصاق ذباب بجِيف نتنة لا نملك اختيارها.

ولكنني أحببتُ اسمي بعد ذلك.. أقصد: تعـــودتُ عليه.. فلماذا يهرب مني الآن؟!.. لماذا يتخلى عني وأنـــا في أمسِّ الحاجة إليه؟!.. آهٍ يا جدي.. ليتك موجـــود الآن لتخبرني من أنا.. ياه.. ما أشد غبائي!.. كيف لم تُواتنـــي هذه الفكرة من قبل؟!.. لماذا لا أحـــاول أن أتذكـــر اســـم جدّي؟!.. إذا تذكرته سأتذكر اسمي.. فكرة جهنمية.. الآن سأنفّذها.. لديّ لحسن الحظ بعـــض المعلومـــات التـــي لا يُستهان بها، والتي ستضيء لي الطريق، وستساعدني في الوصول إلى اسم جدي.. فهو من ستة حروف

وهو ليس محمد

ولا يوسف

ولا قيس

ولا معاذ

ولا مريم

الآن سأتذكره إذن.. ها أنا أخلـــع العمامـــة مـــن جديد.. ها أنا آخذ نفساً عميقاً.. ها أنا أتذكر:

- اسم جدي هو... هو... هو...

أوه.. لا أستطيع تذكر اسم جدّي.. يبدو أنني فقدتُه هو الآخر.. آهِ ما أشدَّ حماقتنا نحن البشر.. لا نشعر بقيمة أسمائنا إلا حين نفقدها.. حين تكون في متناولنا كثمار غير محرّمة لا نعيرها التفاتاً.. نهرب منها.. نتعفف عنها.. نستعمل غيرها نكايةً بها.. ونتركها لغيرنا يستعملونها بدلاً منا.. يلوكونها في أفواههم كالعلكة.. ويمضغونها كحبّات الـ"فروت تيلاّ". نحن رضينا بذلك فماذا ننتظر من أسمائنا بعد ذلك؟!.. أن تأتينا مادةً أعناقها صاغرةً وهي تُنشد: "هيتَ لكم.. ها نحن نقدم لكم فروض الطاعة"؟! مستحيل.. للأسماء كبرياء لا يمكن أن تتنازل عنه.. نحن الذين بلا كبرياء.. نحن نستاهل أن تطلّقنا أسماؤنا بالثلاثة.. أنا أستاهل أن أفقد اسمي لأنني تنازلت عن كبريائي من أجل ريال.. أستحق أن أسجن في هذا القمقم الكئيب المسمّى غرفة، أضاجع الوحدة، بلا أنيس ولا جليس سوى رئة تتنفّس الفقدان، وذاكرة مثقوبة كأذان حبيبتي.. آه حبيبتي.. لماذا تمرق ببالي الآن.. ألأنها سُرقت وضاعت كما ضاع اسمي؟! ألأن اسمي كان يتدفق عذباً من شفتيها كأغنية نشوى؟! ألأنها كانت تناديني به فلا أجيب طمعاً في أن

تناديني مرة أخرى؟!.. قلت لها مرة: "لم أحبّ اسمي كما أحببته من شفتيك.. رجفة لذيذة تمنحينيها ساعة تنطقين به".. قالت: "وأنا أيضاً أحب اسمك لأن معظم حروف اسمي متخفية فيه".. آهِ كم أشتهيها الآن تلك المهيبة كالنار، المغرورة كالدخان.. لو أنها لم تُسرق.. لو أنها موجودة الآن.. إذن لسألتها عن اسمي.. آه.. للمرة الثانية أكتشف أنني غبي.. كيف غابت عني هذه الفكرة؟!.. إذا تذكرتُ اسم حبيبتي سأتذكر معظم حروف اسمي.. الآن سأتذكره إذن.. ها أنا آخذ نفساً عميقاً.. ها أنا أتذكر:

- اسم حبيبتي هو... هو... هو...

سُحقاً.. نسيت اسم حبيبتي أيضاً.. ماذا يعني هذا؟! ألن أخرج؟!.. ألن أتذكر اسمي؟!.. ألن أجد من يخبرني من أنا؟!

من أنا أيتها الغرفة المنذورة للكآبة؟!

من أنتِ أيتها الصورة المعلقة على الحائط كالتهمة؟!

دموع من مسحتَ أيها المنديل؟!

خطيئة من جسّدتِ أيتها المرآة؟!

جثة من احتضنت أيها السرير؟!

أتدرين يا غرفتي الكئيبـــة.. يـــا صورتـــي.. يـــا منديلي.. يا مرآتي.. يا سريري.. يا حبيبتي.. يا جدّي.. يا عالم.. أتدرون.. أنا أعرف عن نفسي كل شيء.. أعرف متى وُلدتُ.. ومتى فُطِمتُ.. والأسباب الكامنة وراء فشلي في الدراسة.. وأعرف لماذا تأخر حصولي على رخصـــة السياقة.. ولماذا خانتني حبيبتي.. ولماذا أنا مولع بالشـــاي بنفس درجة كراهيتي للسيارات ذوات اللونيـــن: الأحمـــر والفضي.. وأعرف أن إفراطي في الأكل ليس دليلاً علـــى الجوع بقدر ما هو تعبير عن الحزن.. وأعرف أن اسمي حمله قبلي نبي دانت له الجن والإنس.. وخليفة أموي ختم حياته بوصية محمودة.. وأن عملية تجميل بسيطة لاسمي تحيل معناه بالإنجليزية إلى " رجل سخيف ".. وأن العامة يطلقون اسمي على الشاي الأحمر الخالي من الحليـــب.. وأن ثمة نوعاً من السمك له اسم قريب من اســـمي.. وأن تعاطي أول حرفين من اسمي يؤدي إلى الإصابة بمرض خطير قاتل.. وأن مجرد اتحاد الحرفين الأول والرابع منه كافٍ لصنع مادة تصلح لأن أنتحر بها.. أعرف كل هذا.. ولكني لا أعرف لماذا لا أستطيع أن أتذكر اسمي الآن..

وها أنا ذا، بعد أن غَرَّرَ بي اليأس، وأعْمَلَ فـــيَّ معاوله الهدّامة، أتخذ قراري الصعب المحفوف بالمهالك: الخروج بلا اسم.. هاأنا أعاود انتشال جثتي من الكرسي.. ها أنا، مجدداً، أرتدي العمامة.. ها أنا أتوجه ناحية الباب.. ها أنا أضع رجلي اليسرى خارجاً.. الآن سأضع اليمنـــى وسينتهي كل شيء.. ياه.. ما أشدَّ غرابـــة هـــذه الدعابـــة السخيفة المسماة حياة!.. خطوة واحدة فقط هي ما يفصلني الآن بين الظلام والنور.. بين الألم والأمل.. بين البـــؤس واليأس.. خطوة واحدة سأخطوها برجلي اليمنى وســـأرى العالم يتعرّى أمامي ككتاب مفتوح:

سأرى الشمس وهي تسبح عارية فـــي وجـــوه الأطفـــال الساذجة

سأرى القمر وهو يحيك الدسائس للشمس توطئة لقتلها في المساء

سأرى عاشقين يخبّئان إباحيتهما تحت شجرة نمامة

سأرى قطعاناً من الغنم تبحث عن رعيانها المنهمكين فـــي مفاوضة السحابة الرافضة إرضاع الغنم من ثديها الضاج بالمطر

سأرى قرية من النمل ترفل بالنشاط وهي تنصب الفخاخ لكسرة خبز شاردة

وسأرى كائناً بشرياً يشبهني كثيراً إلى درجة تبعث على الريبة.. غير أن ما يميّزه عني أن له عينين من جمر وفماً من زئبق.. هذا الكائن العجيب يضع تحت إبطه شيئاً ما لا أعرفه.. سأتوجه إليه مدفوعاً بالفضول لأسأله:

– ما هذا الذي تضعه تحت إبطك؟

وسيجيب:

– هذا اسمي.. وأنت.. أين اسمك؟

سأتلعثم قبل أن أقول:

_ أنا نسيت اسمي

سينظر إليّ شزراً.. وسيطلق من فمه الزئبقي صافرة طويلة بينما يصفّق بيديه.. حينها ستتحلق حولي كائنات بشرية كثيرة (مثله لها أعين من جمر وأفواه من زئبق).. سينظر إليهم، وسيقول مشيراً إليّ بينما الضحكة الساخرة تعوم في زئبق فمه:

– انظروا إلى المعتوه.. انظروا إليه.. إنه يمشي بلا اسم.. مجنون.. مجنون

وهنا ستنتقل الضحكة الساخرة إلى أفواههم، وسيقولون بصوت واحد لا يختلف كثيراً عن صوته:

- مجنون.. مجنون.. انظروا إلى المجنون

وستطيش جمرة من عين أحدهم فتحرق عيني اليمنى.. وسأصرخ.. ثم سيرميني آخر بجمرة مماثلة تحرق عيني اليسرى.. وسأصرخ.. وسيقذفني ثالث بجمرة أخرى تحرق فمي.. وسأصرخ.. وسيتوالى هطول الجمرات كالمطر على جسدي كله وأنا أصرخ، أصرخ، وأصرخ؛ إلى أن أستحيل كومة من رماد.. لا.. لا.. لا.. لن أخرج.. لن أتيح لهم الفرصة ليحرقوني.. لن أخرج.. لن أتيح لهم الفرصة ليقتلوني.. لن أخرج.. ها أنا أعيد رجلي اليسرى إلى الداخل.. لن أخرج.. ها أنا أخلع العمامة وألقي بها على الكرسي.. لن أخرج.. ها أنا أنتزع جسدي النحيل من مخبئه (الدشداشة الحليبية).. لن أخرج.. ها أنا ألقي بجثتي على السرير.. لن أخرج.. ها أنا أغمض عينيَّ.. لن أخرج.. ها أنا أغطّ في نوم عميق.. لن أستيقظ حتى أتذكر اسمي.

* * *

محمد
علي
قدس

- من مواليد ١٩٤٨ (السعودية).
أصدر خمس مجموعات قصصية، منها: نقطة الضعف (١٩٧٩)، وهموم صغيرة (١٩٨٤)، وآخر ما جاء في خبر سالم (١٩٩٥).

ظمأ الجذور

تحسس شفتيه بأنامله المرتعشة التي أصابها الجفاف كأرضه! كل الخيالات تسقط ظامئة، لم تكن الحمى سبباً في الجفاف الذي يشقق جلده!.. إحساسه بالظمأ يلازمه إحساس برغبة في الإفراغ!

جاس ببصره في أجواء الغرفة التي كانت تدور به! كان البلل قد أصاب فراشه قبل أن يستنجد بها! انتفضت أطرافه. كانت الشمس قد توسطت كبد السماء!

وقفت بباب حجرته معصوبة الرأس مبتلة اليدين

والصدر! ماؤها أجاج تغتسل به حيث لا سقيا ولا قطر يروي الظمأ! انحبست في حلقها كلمات غمغمت بها قبل أن تخرج مجهضة من صدرها:

"لماذا تأخرت يا غيث..

أخذت تمسح عتبة الدار جيئة وذهاباً، خطواتها المرتجفة كزحف أفعى في أحراش أصابها (اليباس)، خشخشة الأغصان والأعواد المتكسرة تحت قدميها الحافيتين يزيد اللحظة قسوة واحتضاراً. انتفضت لاحساس يهز داخلها.

الأفق يمتد رحباً، رفعت يدها تظلل عينيها من وهج الشمس الحارقة، جاءت ريح متربة فصكت وجهها، أغلقت باب الدار بعد أن استيأست من وصول الخبر. لم يكن خارج الدار سوى الريح والتراب وصوت الجفاف يعيث في الأرض خراباً. ألقت عليه نظرة وهو يحرك أصابعه المخشوشبة على صدره...، اشتم في رغبة رائحتها..

"مزنة.. يا مزنة...."

جاءها صوته خشناً كالريح المرتطمة بشقوق

الأرض. أقبلت عليه وهي تصلح غطاء رأسها الذي علته غبرة وقتامة، نظر إليها وهي تقترب منه.. بأنفاسها وقد اشتهى رائحة عرقها:

"أين غيث!! أريد غيث لماذا تأخر"..

جلست قربه واحتضنت يداها يده المرتعشة، أطال النظر إليها..، لم يجد حرثه فيها ما كان يتمناه.. أرضها خصبة وتربتها نقية! لكنه موسوم بالجفاف..؟! ابتلع ريقه وقد تشقق حلقه بالظمأ.. أغمض عينيه وهو يكمل عبارته:

"مزنة، لا أدري هل يأتي غيث قبل...! .."

أصابها الفزع.. كانت يده حمئة فانتهضت لهاجس استكان في أعماقها طويلاً، ما على لسانها غير ما يدور في أعماقها.. فليس بعد الجفاف سوى البلل أو الموات!!

"لا تشيحي بوجهك عني، أريد أن يكون آخر نظري إلى الدنيا سواد عينيك بما فيهما من حزن وخوف"

لفت وجهها بوشاحها الأسود. في يدها وقدة يده وفي نفسها هواجس أيقظت مارد الخوف، فماذا بعد الجفاف...؟ أمسك بيدها متوسلاً..

"أين تذهبين؟!..."

"سأحضر قليلاً من الماء لأبلل فراشــــك وأمســـح جبهتك المتقدة؟!.."

قالتها وهي تمسح دمعة باغتتها، أشاحت بوجههـــا عنه. أدرك محنتها تلجلج صوته.. خرجت نبراته مكتومة مكلومة:

"يا مزنة.. شفتي أحق بالماء..، فالفراش قد أصابه البلل...! لماذا تأخرت يا غيث.."

لا ظل للأشياء على الأرض، الريح لا تأخذ مـــن الأشجار سوى حفيف أغصانهـــا الجافـــة، بـــدت شـــقوق الأرض غائرة كشقوق قدمي مزنة العـــاريتين، أصـــوات الغربان تنذر بخراب قادم! جـــاءت مـــن جـــوف دارهـــا مهرولة.. حاسرة الرأس، ألقت بـــ (طاسة) كانت في يدها، تناثرت قطرات الماء التي كانت في القعر ولم تبلغ شفتيه، فراشه المبلل كان خالياً، ولايزال يتقد بحرارته، جاســـت بنظراتها القلقة خلال الدار في حزن وقلق؛ تبينت أثراً في الفضاء والشمس في مكانها كما لو أن الزمن قد توقف عند لحظة اللاظل! كان في مكانه الذي اعتاد الجلوس فيه! كان في قلب الشمس ممسكاً عصاته وقد أســـند رأســـه علـــى الجدار الذي اشتاق رائحة المطر، ساقاه مفرودتان كما لو

كانتا تبحثان عن جذور لها في الأرض الجافة المتشـــققة، أسندت رأسها على الجدار مثله ليخفف من ضرام قلبهـــا الملوع، أجهشت باكيـــة.. الأرض والجـدار.. تمتصـان دموعها.. رفعت إليه بصرها.. حيـث يجلـس والحـزن يطامن قلبها، تطلعت إلى وجهه وعيناها تفيض من الدمع ما دلها على موته سوى بصره الشاخص في وهج الشمس وعصاته المغروسة في عمق شقوق الأرض.

جلست قربه ساهمة واجمة وقـــد بـدل الحـزن سحنتها، وفي السماء غيمة داكنة تحـــوم قربهـا طيـور تصارع العطش. خيل إليها أن عصاتـــه وســاقيه كانتـا كجذور شجرة عتيقة تضرب في أعماق الأرض.

★ ★ ★

ليلى محمد صالح

- (الكويت)، أصدرت مجموعة جراح في العيون (١٩٨٦).

اللقاء مازال وعداً

أينما تكن يأت صوته لها.. يأت على أجنحة الطيور البيض، صادقاً يجتاز كل الحواجز، فتحس به دفئاً وتشربه الشراب الطيب المحلى بالشوق للقاء الغد كلاهما سفر بين الجمر والجمر، كلاهما تضاد الفصول وكلاهما بلا وجه وعينين وفم إلا عند اللقاء العابر، لكن لقاء الغد سيكون عرس الورود حين يجيء، فهو الحاضر والغد في لحظة الغياب، لقاء الغد سيكون ذكرى الأخضر، الأزرق، والبريق الأقوى، وبوح اعتراف الفراشات فوق الزهور البرية عندما تتوسد يداها يديه ساعة الاعتراف، يا غبطة

القمر وسنبلة الضوء المحمل بالحنين، هل ستأتي ساعة الاعتراف؟ أم يبقى الظل يراوح بين مكان الوداع ومكان الانتظار حتى الفجر؟ وربما حتى ساعة الغروب.

كانت تهامس الهواء الساكن وراء الستائر حين عسعس الليل وأسدل ستاره بكثافة، بحرقة تنتظر، لا شيء يشبه الانتظار، هل يهطل الليل من سواد عينيه؟ أم يطلع الصباح من القهما؟ ها هي تستسلم للموكب القادم في غيبوبة الشوق الحميم بثوبها الشرقي وبأنامل يديها وهي تتشابك مع وجع الانتظار ومع خيوط الدانتيل وهي تهرب من القميص المزدان بالسنابل والأزرار تتفك من العروات، تقف مشدودة كالوتد، تحدق وتحدق حتى الفجر، لكن الفجر بزغ كالظَّرف المرعب الموجع، يجرح ويقطع بسكينه الحادة القاسية كل أشرعة الأحلام ويكسر القناديل المضيئة، قفزت من مكانها، نظرت إلى الشارع، هكذا دون موعد أو وعيد فلت زمام الحياة وعربدت خيول الشر تطرق بأقدامها أبواب الرعب الرهيبة.

- يا إلهي هل الأمور التي لا تصدق تحدث في الحياة؟

همساً هناك يتصاعد كالدخان ثـم يهبـط سـخطاً ورعباً ثعبان داخل المدينة ليلة الخميس تحت جنح الظلام، مثل.. نزول الصواعق وخطف البروق وهبوب الرياح.

فجأة ومثل اللمحة واللحظة تحركت ستائر الظلام الدامس بوميض النار اللاهب.... وتحولت كـل الوجـوه الساكنة الحالمة إلـى عيـون رادار ترصـد الخفـافيش المتسللة.

****

الشمس حارة طوال النهار والذباب أكثر من أشعة الشمس والناس بسرعة تتحرك تحت جحيم أغسطس، كل يشتري حاجاته الضرورية ويتجه نحو منزله.... المدينـة تبدو كفتاة أسيرة.... تكبل يديها الأصفاد وتثقـل كاهلهـا سلاسل الحديد وترهق جيدها جبال المراسي القديمة.

قامت ثانية وهي تتأرجح بيـن رحلـة الكـابوس المرعب للتسمر أمام النافذة لعلها تراه، ربما يأتي، ربمـا، جيوش من الأسئلة افترست رأسها بكل قسوة، ومع سقوط الظلام تذكرت حين كلمها مساء الأمس وقرأ لها جزءاً من مقطوعته (يا ابنة أحلامي الحبيبة، لمّي ما تبعثر من ورد

وأنين، ليس لي غير الرنين وما حفظتــــه المياســم فــوق صدرك، وأنا أرتمي، سراب وأحسبه ماء يا امرأة تعرفين كيف يكون حنيني).

في تلك الليلة تمنى لو استطاع أن يدنو منها ويلقي نفسه أسير دمعة حزينة في عينيها كأنما هي كل حــــروف العالم. لقد شعر أن عليه أن يقدم جواباً سريعاً لكل أسئلتها التي لا تنطق بها، لكنه أحرق كل الحروف حين ودعهـــا قائلاً،

غداً يوم جديد.

****

من فتحة النافذة الضيقة بقيت حتى المساء تشـــاهد حركة الشارع الذي غصّ بأخبار المشبوهين والمجذومين واللقطاء الذين التهمت أعضاءهم كلاب الشوارع، القمـــر يطل شاحباً ورطباً يرفس الأبواب إلى مدارات النوم حيث الكوابيس والاختناق وسيارات الغادرين تســـرع بحريـة طائرة تحت الشرفات تفرز دخانها هنا وهناك.

النشيج من بين شفتيها الدقيقتين اللتيـــن يحملهمـــا وجه صاف يبرز من ظلام ثوب ليل داكن.

كانت في عينها دموع محنطة جعلت وجهها كلوحة من أعمال "بيكاسو" إنها الرحلة الصعبة للإمتلاك حين يطحن وطن الأحلام مثل حنين تمزقت أحشاؤه ومضت الرياح بالأطفال العراة والنساء المطعونات.

****

تتشابك أيام الأسبوع، وتضيع ساعات الأيام في الانتظار الممل القاتل.

- سأحمل السلاح

- لماذا لا أستطيع أن أقول

- أخشى أن أفقده إذا قلت له ذلك

- أخشى أن يضيع مني إذا لم أقل... ماذا أفعل؟

الحمم تتفجر... والسماء ملبدة بالطائرات والقذائف وعيناه.

- آه من عينيه المتقدتين اللتين تنشبان في روحي ملامح الضحية الملعونة بخناجر الأخوة الأصدقاء، لقد تساوى كل شيء الموت والحياة، الليل والنهار، الأعداء والأصدقاء، لا فرق، لا فرق أبداً.

صكت أسنانها بقوة، حرقة من نفسها، مدت لسانها تمرره فوق شفتيها الرقيقتين الجافتين، عادت إلى فراشـــها تحمل كاهلها أيام الأحزان، وضراوة الأحزان.

- حب هذا الوطن أكبر من أي شيء آخر، إنـــه الحـب الأكبر الملتصق بالذات والروح والوجدان لكن، كــم أنــا مشتاقة إليه، أحترق شوقاً، إنني بحاجة إليه الآن أكثر من أي وقت مضى، هل الشوق سيبقى معلقاً حتى تأتي أيـــام الحرية، الوطن هو الحرية، والحرية هي الوطن، تخيلتـــه يرد عليها بملامح تمور غيظاً طاحناً، يقترب منها وعيونه الحمراء تقدح شراهة ووحشية وغضب:

- اللعنة على الغزاة أيام الحرية قادمة من موكب الوعــد، لحظة النصر آتية ننقشها على دمنا حتى يكمل رحلته بين شوق الصحراء وهدير الموج على صخر الإباء الشـــامخ يسقي تراب الأرض السخية التي تسترخي وتستقبل نـــار الفضاء.. لهذا الجنون الناقم.

- الرياح من بحر الحلم تحـــاول أن تخلــق جــواً مــن الاطمئنان المصطنع، حينها تذكرت البحر بحــر الكويــت الذي يحب، بحر الحب والصفاء والسفر والآمـــال الــذي أخذوه في اليوم الثالث أسيراً، كيف سنراه وقد أصبح مــن

غير السهل أن يقف الإنسان على سواحله المهجورة، البحر دخان، والموج دخان، الأسلاك والخنادق والألغام تملأ شواطئه بأشواك الغضب، تلكم السواحل المطرزة بعشق الطمأنينة التي طالما تغنى بها، وبالعشاق والنوارس والصيادين والأطفال العابثين بالرمال.

كانت تلك الليلة قلقة بكت فيها النجوم والصخور والأصداف ذلك الظلام المخيم على البيوت الجميلة التي تنام على الجراح سيارات تحترق، متفجرات، لم تسكت فيها أصوات الدمار لحظة واحدة، وعندما تخطت الحادية عشرة ليلاً، رن الهاتف، خطفت السماعة:

- آلو...

جاء صوته عبر الأسلاك كعادته:

- هل بالإمكان أن أقابلك غداً؟

- في هذه الظروف الصعبة؟ كيف؟ هل هناك شيء ضروري؟

- إلى حد ما...؟

- سآتي... إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

****

في الصباح انطلقت بسيارتها، نقطة سيطرة، نقطتان، ثلاث، عندها استوقفها أحدهم يطلب هويتها، بينما بندقية الآخر إلى صدرها، أحست بدروان عنيف، ناولته إياها وهي في ذعر تبحث عن ملاذ في عيون الآخرين. نظر إليها من تحت حاجبيه، فحص الهوية بعناية من لا يعرف القراءة تفحصها ملياً قبل أن يردها ويسمح لها بالإنصراف، أسرعت ولم تنظر خلفها.

في طريقها مرت في بعض شوارع المدينة، الموت يلف كل شيء ويغطيه بلون رمادي متفحم، بيوت مهجورة تبكي فراق أهلها، أكوام نفايات على جوانب الطرق، مركبات عسكرية مدمرة، إشارات مرور صامتة لا تعمل، وأشجار جميلة تشكو الظمأ. لم يعد في المدينة التي تعشق أماكن يمكن أن يتذكراها معاً، تفحصت الوجوه لم تجد وجهاً تعرفه، ظلم، قهر، وجوم، الناس تغيرت ملامحهم، خوف، دم، ألم، جراح. بعضهم يتابعون الأخبار وقد ألصقوا أجهزة المذياع الصغيرة بآذانهم، البعض الآخر ربما رحل وربما ضاع الآخرون.

ها هي الآن تقف أمامه، تتلفت في حـــذر وقلــق وخوف، ترد أصابعها المشنجة خصلة شعرها للوراء كان هو يحضن رأسه بحركة لا إرادية يعصره بيــن راحتيــه قليلاً ثم يهزه بعنف. ويتمتم:

- يجب أن تتم العملية، العملية مهمة، كل واحد منا يتمنى الموت مع إتمامها.

سمعت نقاشهم الهادئ وقد التقطت بعض فحواه.. كانت ملامحهم وحركات أياديهم تقطــر اتزانــاً وحماســاً وجدية. كانوا يتبادلون حديثاً أقرب إلى الهمس، عرفت مما تناهى إلى سمعها أنهم يخططون لشيء ما كبير بحمـــاس شديد يعلو صوتها:

أرجوكم، أرجو من كل واحـــد منكــم أن ينتبــه للمواعيد اليومية لدوريات المحتل إنهم يفتحـــون بعــض المنازل، وعندما لم يجدوا ما يثــير الشــبهات يبعــثرون المحتويات، وفي طريق انسحابهم يقبضون على كــل مــا يصادفون ثم يخضعونه لتحقيق (إذلالي) طويل.

- الوضع كالكابوس، هل تعرضت لمضايقة عند مجيئك؟

- الأهم من هذا استوقفوني وسألوني عما إذا كنت أعرف من يخبئ ويتستر على أسماء رجال المقاومة.

- استطرد مسرعاً:

- إياك أن يخونك لسانك مرة، لا كلمة، لا همسة، حتى لأقرب الناس إليك مفهوم.

****

فجأة اشتد القصف، طرقات على الباب فيها عنف وتعجل ونوايا اقتحام شديد.

- افتحوا، المنزل مطوق ومحاصر لا تحاولوا الهروب.

جاء الصوت حاداً كمقصلة، قاسياً كسيف ثلم على عنق طير حبيس، تردد الجميع في فتح الباب لكنهم خلعوه وتدفقوا داخل المنزل يتقدمهم القائد وكأنهم عاصفة في الهواء دفعوه بوحشية ووجهوا له فوهات البندقية بانتظار ضغطة الزناد.

صرخت في وجههم وهي تغلي:

ماذا تريدون منا؟ أهكذا تنتهك حرمات البيوت؟ تقدمت نحوهم، دفعها أحدهم بقوة، انفجرت باكية والتصقت بالحائط.... صرخوا به:

- ضع يدك على رأسك.

تسمر مكانه وامتثل للأوامر بتحد في عينيه يبرق الغضب وفي داخله حريق هائل، ضلوعه كأنها خناجر مشرعة متعطشة للإنتقام، الإنتقام من ذلك الوغد الذي أوصلهم إلى البيت، إلى السر..!

رددت أعماقه بحسرة:

- آه ليتني أستطيع الإفلات لحظة واحدة فقط لأفقأ عينيه الغدارتين.

صرخ به أحدهم:

- قف مكانك

ضربه الآخر بعقب بندقيته، رفسه الثالث وصوب رشاشه إلى صدره كان الحدث أقوى من أي توازن، خارت قواه وسقط مغشياً عليه رفعوه مكبلاً بالحديد وقذفوه في إحدى زوايا الشاحنة القذرة التي كانت تنتظر.

اندفع البعض الآخر من الجنود إلى السرداب جمعوا مناشير تحريضية... تعليمات سرية تدعو لمقاومة المحتل؛ أخذ البقية مسدسات مصوبة إلى رؤوسهم وطلقات الرصاص تتعالى في الهواء.

سارت الشاحنة بين الموت الأصفر ونقـط الـدم، الدم، صرخت مذعورة من غير صوت أجهشت بالبكـاء ارتمت بين أحضان الهواء.

المسافة بدأت تبتعد بينها وبينه ولـم تعـد تـراه بفجيعة لوحت بيديها، بحثت عنه، عنهم، لا شـيء، بلعـه الهواء، ركضت سقطت، انتظرت، مازالت تنتظر، تنتظر لقاء الأمل والميلاد لقاء الحب من حبيب الفداء، لقاء الفرح الموعود، كحضور الغياب؛ العائدين، موعد الحب مـازال وعداً ينتظر.

★ ★ ★

حسن النعمي

- من مواليد ١٩٥٩ (السعودية). أصدر مجموعتين قصصيتين: زمن العشق الصاخب (١٩٨٤)، آخر ما جاء في التأويل القروي (١٩٨٧).

رحيل الأستاذ بخيت

تحسس شفتيه بأنامله المرتعشة التي أصابها الجفاف كأرضه! كل الخيالات تسقط ظامئة، لم تكن الحمى سبباً في الجفاف الذي يشقق جلده!.. إحساسه بالظمأ يلازمه إحساس برغبة في الإفراغ!

جاس ببصره في أجواء الغرفة التي كانت تدور به! كان البلل قد أصاب فراشه قبل أن يستنجد بها! انتفضت أطرافه. كانت الشمس قد توسطت كبد السماء!

وقفت بباب حجرته معصوبة الرأس مبتلة اليدين

والصدر! ماؤها أجاج تغتسل به حيث لا سقيا ولا قطر يروي الظمأ! انحبست في حلقها كلمات غمغمت بها قبل أن تخرج مجهضة من صدرها:

"لماذا تأخرت يا غيث..

أخذت تمسح عتبة الدار جيئة وذهاباً، خطواتها المرتجفة كزحف أفعى في أحراش أصابها (اليباس)، خشخشة الأغصان والأعواد المتكسرة تحت قدميها الحافيتين يزيد اللحظة قسوة واحتضاراً. انتفضت لاحساس يهز داخلها.

الأفق يمتد رحباً، رفعت يدها تظلل عينيها من وهج الشمس الحارقة، جاءت ريح متربة فصكت وجهها، أغلقت باب الدار بعد أن استيأست من وصول الخبر. لم يكن خارج الدار سوى الريح والتراب وصوت الجفاف يعيث في الأرض قسوة. ألقت عليه نظرة وهو يحرك أصابعه المخشوشبة على صدره...، اشتم في رغبة رائحتها..

"مزنة.. يا مزنة...."

جاءها صوته خشناً كالريح المرتطمة بشقوق الأرض. أقبلت عليه وهي تصلح غطاء رأسها الذي علته

غبرة وقتامة، نظر إليها وهي تقترب منه.. بأنفاسها وقد اشتهى رائحة عرقها:

"أين غيث!! أريد غيث لماذا تأخر"..

جلست قربه واحتضنت يداها يده المرتعشة، أطال النظر إليها..، لم يجد حرثه فيها ما كان يتمناه.. أرضها خصبة وتربتها نقية! لكنه موسوم بالجفاف..؟! ابتلع ريقه وقد تشقق حلقه بالظمأ.. أغمض عينيه وهو يكمل عبارته:

"مزنة، لا أدري هل يأتي غيث قبل...! .."

أصابها الفزع.. كانت يده حمئة فانتهضت لهاجس استكان في أعماقها طويلاً، ما على لسانها غير ما يدور في أعماقها.. فليس بعد الجفاف سوى البلل أو الموات!!

"لا تشيحي بوجهك عني، أريد أن يكون آخر نظري إلى الدنيا سواد عينيك بما فيهما من حزن وخوف"

لفت وجهها بوشاحها الأسود. في يدها وقدة يده وفي نفسها هواجس أيقظت مارد الخوف، فماذا بعد الجفاف...؟ أمسك بيدها متوسلاً..

"أين تذهبين؟!..."

"سأحضر قليلاً من الماء لأبلل فراشك وأمسح جبهتك المتقدة؟!.."

قالتها وهي تمسح دمعة باغتتها، أشاحت بوجهها عنه. أدرك محنتها تلجلج صوته.. فرجت نبراته مكتومة ملكومة:

"يا مزنة.. شفتي أحق بالماء..، فالفراش قد أصابه البلل...! لماذا تأخرت يا غيث.."

لا ظل للأشياء على الأرض، الريح لا تأخذ من الأشجار سوى حفيف أغصانها الجافة، بدت شقوق الأرض غائرة كشقوق قدمي مزنة العاريتين، أصوات الغربان تنذر بخراب قادم! جاءت من جوف دارها مهرولة.. حاسرة الرأس، ألقت بـ (طاسة) كانت في يدها، تناثرت قطرات الماء التي كانت في القعر ولم تبلغ شفتيه، فراشه المبلل كان خالياً، ولايزال يتقد بحرارته، جاست بنظراتها القلقة خلال الدار في حزن وقلق؛ تبينت أثراً في الفضاء والشمس في مكانها كما لو أن الزمن قد توقف عند لحظة اللاظل! كان في مكانه الذي اعتاد الجلوس فيه! كان في قلب الشمس ممسكاً عصاته وقد أسند رأسه على الجدار الذي اشتاق رائحة المطر، ساقاه مفرودتان كما لو كانتا تبحثان عن جذور لها في الأرض الجافة المتشققة، أسندت رأسها على الجدار مثله ليخفف من ضرام قلبها

الملوع، أجهشت باكيـــة.. الأرض والجـــدار.. تمتصـــان دموعها.. رفعت إليه بصرها.. حيـــث يجلـــس والحـــزن يطامن قلبها، تطلعت إلى وجهه وعيناها تفيض من الدمع ما دلها على موته سوى بصره الشاخص في وهج الشمس وعصاته المغروسة في عمق شقوق الأرض.

جلست قربه ساهمة واجمة وقـــد بـــدل الحـــزن سحنتها، وفي السماء غيمة داكنة تحـــوم قربهـــا طيـــور تصارع العطش. خيل إليها أن عصاتـــه وســـاقيه كانتـــا كجذور شجرة عتيقة تضرب في أعماق الأرض.

★ ★ ★

فوزية الجارالله

- (السعودية)، أصدرت مجموعة في البدء كان الرحيل (١٩٩١).

تلك البداية

أريده كالشمس.. واضحاً مثل بحيرة ماء في باطن الكف أراه هكذا حتى آخر ذرة في أعماقه!

فمن يكون ياترى؟!

كان هذا السؤال الذي أرقني كثيراً منذ كثر الحديث حولي.

الخطوة الأولى إلى الصالون الواسع الذي بدا لي غريباً كأنما أدخله للمرة الأولى.. لكنني رغم كل مشاعر الإرتباك أشعر بإصراري على أن أرى تلكما العينين.. أن

أصل إلى نهاية تريحني من تلك الحيرة.. أن أقــــرأ فــي ملامحه شيئاً ما يدلني على أن هذا هو الطريـــق عندهــا أستريح.. لابد أن أستريح وأحمد الله أنني مُنحت تصريحاً برؤية خاطفة بحضور الأعين الرقيبة عندها لابد أن تكون هي الفرصة الأولى والأخيرة التي أشرب فيها كل الملامح الجديدة القادمة لمعرفة أكثر ومن ثم التوصل إلى قرار!

الملم تلك الأحاديث المتناثرة حولي عنه، تتشـــكل لدي صورة متباينة غير مكتملة أحاول الموازنة بينها كي أصل إلى شكل واحد بملامح مألوفة لكنني فشلت..!

كانوا يتحدثون ويحـــاصرونني دائمـــاً بإشـــعاري المستمر بأنه لم يعد ثمة مساحة للتفكير أو العبــث. أحقــاً انتهى كل شيء؟! لماذا إذن يحاصرونني بذلـــك الشـــعور كأنما يقولون لي خطوة واحدة ويغلق باب السعادة دونـــك إلى الأبد؟

***

لم أكن أدرك إطلاقاً ما الذي تحمله أمي في رأسها من أخبار سعيدة حين جاءت تخطو بابتسامة لا تســـتطيع مواربتها. لم أكن أدرك ذلك لكنني أقرأ في عينيها خـــبراً

سعيداً أو مفاجأة سارة ربما ليست لي بالتحديد لكنه خــــبر مفرح ولا شك في ذلك وقبل أن أسأل قالت هامسة:-

لقد عاد إلى الحديث مرة أخـــرى!! لــم أمنحهــا فرصة كي تشد على يدي وهي تتعثر بكلمة "بشارة"!

بشارة! أي بشارة؟!

مفاجأة مدهشة عجيبة..

نعم لم أكن أنتظرها إطلاقاً ولم تكن حلماً مؤرقاً. لقد مضى شهر وأربعة أيام على تلك الحادثة!

الحادثة.. نعم..!

كنت طفلة لا أنسى إطلاقاً منزل الجــيران الــذي كان حافلاً بالقصص التعيسة الغريبة.. لا أنسى منظر تلك المرأة جارتنا.. كانت بيضاء البشـــرة.. قصــيرة قليــلاً.. بشعر أسود تلمه غالباً تحت الوشــــاح الأســـود.. لفتاتهــا خائفة.. تطرق دائماً بنظراتها إلى الأرض. أمـــا زوجهـــا فيعمل في شركة بعيدة جداً عن سكنه لذا فهو يضطر إلى الاستيقاظ باكراً جداً منذ الساعة السادسة صباحاً..

لا أدري لماذا غادر النوم جفني ذلك الفجر.. رغم أننا في الإجازة الصيفية إلا أنني اعتدت الاستيقاظ مبكراً!

تركت لعبتي لكي أضع الكرسي فوق الصندوق الخشبي المجاور للجدار الفاصل بين سطح الجيران وسطح منزلنا.. سمعت صوت همهمة منخفضة لا أتذكر هل سمعتها قبيل صعودي فوق الكرسي أم بعد ذلك. لا أدري أي فضول دفعني إلى ذلك العمل.. عندها لمحت بياض ثوبه.. كان طويل القامة.. حاسر الرأس.. أدركت أنه سبقها وارتدى ثيابه ثم صعد مرة أخرى ليحاول إيقاظها بالسباب والشتائم!!

الفجر جميل ساحر.. العصافير تشقشق وهو يسب أباها، واليمامات تغني شجناً فيسب أمها.. وتصيح الديكة فيشتم أجدادها وقبيلتها! ويعيد ركلها بقدمه بعنف.

يبدو أن نومها ثقيل أو أنها متعبة لكنها فتحت عينيها برعب شديد وكأنما انتقل رعبها إلي.. خفت.. ماذا لو رآني الآن.. حاولت خفض رأسي أكثر حتى التصق فمي وأنفي بالجدار الجيري.. لازلت أستشعر ذرات الغبار تتسرب عبر أنفاسي إلى صدري..

ماذا لو رآني الآن.. خُيل إليّ بأنه سيشدني من شعري أو يصرخ بي أو سيأتي ليفضحني ويخبر والدي بأن ابنته قليلة التهذيب لأنها تسترق النظر إلى بيوت

الجيران.. خفضت رأسي أكثر حتى انتهت الزوبعة فقد سمعت صوت أقدام الرجل ثم المرأة تعبر السلالم.. المسكينة ماذا فعل بها؟!

لطالما استمعت إليها وهي تشكو إلى أمي معاناتها. كانت تحدثها بأنه لا يسمح لها بالخروج وتقول له بأنها ستجن من هذا السجن فيجيبها ببرود: إن جننت قيدتك بالحبال.. لا مشكلة.

ثم يغلق الباب خلفه ويتجه إلى عمله!

***

تتقاطر الصور في ذاكرتي.. أذكر تلك اللوعة في عينيها واللهفة الخائفة التي كانت تسبق كلماتها.. كانت تتبادل الحديث همساً مع أمي.. وجهها كان مألوفاً لكني لا أدري كيف وُجدت هناك كامرأة الأسطورة كانت قادمة من البيت ذاته.. رأيتها في سطح منزلنا.. ساعتها لم أدرك ما الذي يحدث؟! لكنني فهمت من أمي فيما بعد أن هذه المرأة جارتنا قد قفزت من الحائط القصير في السطح الفاصل بين منزلنا ومنزلهم لأنها تريد الخروج سراً دون علم أحد لرؤية طفليها اللذين حُرمت منهما منذ زمن ووالدهما يرفض إحضارهما إليها وأخوها يتشدد في منعها وفي

الضغط عليها فهو لا يحبذ أن تقترب إطلاقاً من منزل ذلك الصعلوك / زوجها وقد جاءها خبر هاتفي مـــن إحداهـــن يقول بأن الطريق ممهد تماماً وأن الأجواء مناسبة لرؤيـــة الطفلين لكن شقيقها يرفض لذا فقد أرادت الخروج خلســـة وهو نائم وليكن ما يكون! وأمي تساعدها في تنفيذ المهمة. استدارت وغابت في الطريق ولا أدري ما الذي حـــدث؟! إذن ذلك الرجل المرعب الذي اعتاد إيقاظ زوجته بركلهـــا بقدمه هو شقيقها!

لم أكن أستطيع أبداً أن أسقط من أعلى إلى أســـفل بمنتهى البساطة.. لم أكن أستطيع أبداً أن أؤمن بفوضويـــة الاختيارات ومنطق الأضداد وأن أقضـــي ليلـــة بأكملهـــا أحاول حسم الموضـــوع مـــن خـــلال التسليم بنظريـــة الاحتمالات!

لم أكن أستطيع أبداً أن أحول وجودي بأكمله إلـــى ورقة صغيرة ملصقة في لوحة سوداء مظلمة..

أسقط في موج حار من الأسئلة بلا إجابة.. لا أجد ذاتي.. يخيل إليَّ أحياناً أنني سوف أتيه في بحر متلاطـــم من القلق والتشتت وأنني أدرك جيداً بأنني سوف أصل إلى ذلك الشاطىء.. إلى تلك الجزيرة ويغمرني حنان رائـــع،

ومن جانب آخر يخيل إليَّ أحياناً بأن الأشياء سوف تنتهي؛ وأن الأفراح سوف تتضاءل حتى تغيب؛ وأنها ستدخل في دهاليز وأنفاق مظلمة من التعاسة لو أني فقـــط خطــوت خطوة واحدة!

***

كلهم يطالبون بذلك الدخول.. لكني أريده دخولاً لا أودع فيه الأحلام دخولاً أسير إليه بكل خضـــوع وفــرح ونشوة.. دخولاً أرتوي فيه من نبع الشمس.. نور الحقيقة، من تفاؤل العصافير الجميلة.. أريـــده دخـــولاً مختلفـــاً.. تأملاً.. شجناً.. سباحة هياماً.. تألقاً.. جنوناً.

أريده تلك البداية لا تلك النهاية.. ذلك الشـــموخ لا ذلك الانزواء.. ذلك الوجود المترع حباً.. لا تلك المساحة التي شققها الجفاف والفقر!

مازالت تلك الأصداء في ذاكرتي..

صوت الخاطبة وصوت أمي يتحـــدان، يشـــكلان جبهة مضادة ويغيب صوتي بينهما.. كانت تصفه، قـــالت بأن له تجربة زواج وهو على وشك الطلاق! إنهـــا لـــدى أهلها.. لديه طفل واحد صغير وهو يريدك..

- لأنني ماذا؟

- لأنك في سن الزواج ولانك العنب الذي حان قطافه!

المرأة ليست إلا لزوج يحميها..! صوتي الغائب يقترب.. يتحسس الطريق:

وهو من يحميه؟ هل نحن حقاً بحاجة إلى حماية؟!

دعي هذه الوساوس.. تفاعلي.. تفاعلي!

اللمسات الأخيرة.. وضعت غطاء أسود مطرزاً (بالدانتيل) على رأسي كي أحتفظ بمظهر محتشم متفق عليه.. شعرت بقوة واندفاع.. ثم فجأة انقبض صدري.. بكيت.. هاجمتني أشباح صرخات ماضية غريبة لأناس بعيدين جداً.. ولكن لماذا أصر على التشبث برأيي فلا أرضى بمنحة الآخرين لي؟ إنني أتقلص دائماً خلف قضبان الخوف فلأجرب نقضه مرة واحدة فقط!

أبي هناك في الأريكة المقابلة للباب تماماً. لا أدري كيف تجاوزت العتبة إلى الداخل.. تماوجت أمامي الوجوه والجدران والألوان، لم أميز وجه أبي من إطار اللوحة المعلقة في صدر الصالون.. لا أتذكر سوى ذلك

المنظر الخلفي لرأسه الحليق تحت القبعة العسكرية والزي العسكري الكامل والجيب المخصص للمسدس.. لم أنتبه إذا كان هناك أم لا.. تخيلته شبيهاً بأحد أبطال أفلام رعاة البقر الأجنبية مع الفرق الشاسع.. أولئك آدميون طبيعيون، أما هو.. لا.. لا أستطيع التحديد أبداً..!

أشاح بوجهه عني قبل أن أتمكن من التعرف على ملامح وجهه؛ وضع كفه على جانب صدغه الأيمن المواجه لي كي يشكل حاجزاً تماماً عن الرؤية.. تبتسم بداخلي امرأة ساخرة من ملامح الزيف والادعاء والذبول.. إنها اللحظة الفاصلة التي تحيا فيها أحلامنا أو تقتل وتتسحق إلى الأبد..!

لم يلقِ نظرة مباشرة إليَّ.. نفرت.. اقشعر جسدي.. شعرت بألف حاجز وحاجز يسقط بيني وبين مشاعري.. بيني وبين قلبي.. شعرت بأن قلبي يفر.. يحلق... يصرخ.. يضرب أضلاعي بألف لا.. ينتحب ببراءة ويريدني أن أنحيه بعيداً إلى طقس أكثر نقاء..

لم أسمع صوته إطلاقاً. شعرت بسيل من التقزز والخجل والغضب يتدفق بين أضلاعي، يصعقني.. يبدأ من قدمي ويصل إلى رأسي.. شيء ما ينطفىء بداخلي.. ربما كان حيرتي أو خوفي أو لهفتي!

مضى على هذه الحادثة شهر وأربعة أيام؛ كنت أستعجل عبور الأيام كي أنسى.. ولكن حين تعثرت أمي بكلمة "بشارة" عادت تفاصيل الحادثة طازجة.. موجعة!

عادت إلى ذاكرتي صورة قوية حادة.. الرأس الحليق والقبعة العسكرية ورائحة الأشياء المفتعلة ومشاعر الأسى التي تركتها الأحلام المطفأة.. خيل إليّ بأني غبت زمناً بعيداً.. بعيداً.. جداً.. خلعت ثوب الخوف.. أغلقت أبواب ذاكرتي.. خبأت مفاتيح خزانتي..

استفاقت دهشتي واتسعت حدقتاي بذهول؛ حين تابعت أمي حديثها قائلة:

إنه يسأل: كم تريدين مهراً؟!!

★ ★ ★

عبده خال

- روائي من مواليد ١٩٦٢ (السعودية). أصدر ثلاث مجموعات قصصية: حوار على بوابة الأرض (١٩٨٧)، لا أحد (١٩٩٠)، ليس هناك ما يبهج (١٩٩٥).

نبت القاح

منذ أربع سنوات لم يغير جلسته، يظل في مواجهة البحر يحدق في الأفق بترقب وصبر نافذين، يجلس جامداً كقارب ألقي به على شط هذا البحر ليستقبل الموج والطحالب وأخبار الموانىء الموحشة.

من بعيد تلمحه كصخرة قدت على هيئة إنسان تكور ويبقى رأسه معلقاً في البعيد ومع الغروب تكتشف أن تلك الصخرة ما هي إلا شخص رضى أن يسمر نفسه يومياً بهذه الناحية المقفرة من شاطىء المدينة، يعبره الريح

ورذاذ البحر وأصوات النوارس المحلقة على مقربة من رائحتها.

ومن هناك، من المدى تبزغ أمواج وأشرعة وقوارب، وصيادون وأسماك، وشمس تسقط في مداها، ولا شيء يأتي مما يموج به البال.

يخرج من بيته مع القيلولة وثمة دعوات تسكبها امرأة مسنة خلف ممشاه ففي مثل هذا الوقت تقل الأقدام المتجهة صوب البحر، فيغتنم خلو المكان من الصيادين والباعة ويتسلل بمحاذاة البحر باتجاه الشمال ماداً خطوات عجلة عابراً قوارب الصيادين المتناثرة على مقربة من ألسنة الأمواج الرخوة وثمة أمل يتقطر بخاطره فيخضر له الفؤاد، يخالس المارة النظرات السريعة ويمرق بسرعة وارتياب وإذا رأى شخصاً قادماً في طريقه تلعثمت خطواته ووقف كمن يريد جمع أصداف البحر النائمة على امتداد الساحل، ويسلك الطرق البعيدة عن ممشى المارة حتى إذا أصبح في منأى من تلك العيون الضيقة والوجوه السمراء، أخرج كيس قمح صغير من جيبه وأخذ ينثر حبيباته للطيور التي تملأ تلك الناحية، ولم يكن ليلتفت خلفه مهما كان الأمر، ولا يصل إلى مكانه هذا إلا مع الأصيل

حيث تتجمع طيور النوارس فيحاورها صامتاً بينما عيناه تركض في الأفق بترقب وصبر مملين.

وحين يلمح الشمس تنتحر انتحارها اليومي وتقبر قرصها بالمدى ينفض مؤخرته ويعود من حيث أتى لتبتلعه الأزقة الضيقة في جوف الحارة.

في البيت تستقبله بلهفة وتتلمس جسده الفارع وبصوت محروق متلهف لم ينضب منذ خمسة وعشرين عاماً تعاود لهفتها القديمة:

- بشر

فيضمها لصدره برفق، ويعيدها إلى موقعها الذي أصبحت تألفه كما تألف رائحتها، فتتحشرج الكلمات بحلقها فلا تقوى على شيء سوى الإجهاش بالبكاء، وتتمتم بلوعة:

- لا تيأس.. سيعود

في الماضي البعيد كان صغيراً لا يعرف سراً لهذه الدموع المنسكبة على الدوام والتي تركت عيناها بيضاء خالية من كل شيء إلا حركتها المتلاحقة، كان يسمعها في أقصى الليل وهي تنتحب وعندما كبر قليلاً كانت تسند

رأسه بحجرها كلما سألها عن أبيه وتحكي له أنه سيأتي محلقاً ويهبط عليهما ذات مساء من إحدى الفرج، ولا تنسى أن تشير لتلك الفرج المستقرة بأسقف الغرف. كان يظن أن هذه الحكاية ستنقطع وينتهي أثرها حينما يكبر ظاناً أنها حكاية تنسجها لتستجلب النوم لعينيه المفتوحتين على الدوام (والتي أصبحت عادته حتى عندما كبر وأصبح رجلاً ثلاثينياً فقد ظل ينام مفتوح العينين) لكن تلك الحكاية لم يغطش بريقها تلك السنوات الطوال ولم تنسها هذه المرأة التي ابيضت عيناها من سفح الدموع.

ففي إحدى الأيام وبينما كان يعيد ترميم المنزل ثارت ثورة لم يعهدها بها وأقسمت بأن تترك له الدار وتهيم في أرض الله إذا لم يترك تلك الفرج على حالتها الأولى، تلك الفرج التي استبقتها بسقف كل غرفة من غرف المنزل، وكانت تصيح به:

- أنسيت بأن أباك سيعود إلينا من خلالها

ولكي لا يغضبها فقد استبقاها مشرعة للريح والمطر فما أن تحل مواسم الأمطار حتى يستحيل المنزل إلى مستنقعات يتم نزحها بكل عناء، وكان يجد صعوبة في إقناعها بنزح تلك المياه الراكدة بفعل المطر حيث تصر على بقائها وهي تغمغم:

- أجد بها رائحة أبيك.

فيستجيب لها ويبقي مياه الأمطار راكدة دون أن يجرؤ على نضحها حتى تتحول إلى مياه آسنة تستحلب البعوض ودويبات الأرض. عندها فقط تأتي لتقول له:

- لن يأتي أبوك في هذا الموسم فانضح هذه المياه الآسنة

وفي كل عام تمضي مواسم الأمطار مخلفة حلماً قديماً شاخ بذاكرة تلك المرأة التي لم تيأس من عودة زوجها الذي خرج ذات ليلة ولم يعد، فقد حكى لها قبل اختفائه أنه رأى نسراً قوياً يخطفه ويحلق به في الفضاء ويقذف به في عتمة البحار النائية، وبعدها بليلة واحدة وبينما كانت نائمة أحست بشيء يتحرك من حولها وينفرج سقف غرفتها لتلمح زوجها معلقاً في الفضاء كطائر عملاق يخفق بجناحيه بشدة صوب البحر. كانت تظن أنها تحلم فأغمضت عينيها وواصلت نومها وعندما أفاقت وجدت جزءاً من سقف غرفتها منبعجاً ولم تجد زوجها.

وروت أنها قطعت الأرض تبحث عنه ولم تعد لدارها إلا حينما أخبرها شيخ بأن زوجها سيعود ذات ليلة من نفس المكان الذي خرج منه وأوصاها أن تبقي بيتها

مفتوحاً وان تهييء له عشاءه كل ليلة فسيأتي جائعاً كمن لم يأكل طوال حياته.

كانت تروي هذه الحكاية يومياً على مسامعه حتى أجزم أن الجنون اقتات عقلها وتركها عبئاً يحمله ضمن همومه اليومية، فكان يسايرها وفق ما تشتهي، ونادراً ما يتذمر منها أو يثور لتصرفاتها الغريبة.

كانت في كل ليلة تدور على تلك الفرجات وتنظر إليها لدقائق وهي تحمل شرشفاً طويلاً لتغطي به عورة زوجها حينما يأتي، فقد أقسمت أنه سيأتي عارياً كما تراه يومياً في منامها، ولم تكف عن هذه العادة منذ أن تغيب زوجها عن البيت، وتعتذر من كثرة نومها لابنها بقولها:

- يلح عليَّ أن أمكث معه أطول وقت ممكن فلا تلمني فأنت لا تعرف أباك، إنّه صارم والويل لمن يغضبه، وأنا أحبه ولا أريد إغضابه

فيهز الابن كتفيه محوقلاً، ويتركها وهي تسبه لعدم تصديقها، وقد تمسك به معاتبة:

- أتظن أن أمك قد أصابها الجنون.. نعم أنا أقرأ ذلك بعينيك.. قل ولا تخف

وعندما تجده صامتاً وعيناه تركضان في اتجاهات شتى تتركه وسبابتها تركض في وجهه وصوتها ينداح عميقاً موقناً:

- سوف يأتي كما أراه في كل ليلة، ساعتها ستندم وتطلب عفوي ولن تجده.

كانت فيما مضى تجمع مياه الأمطار المنسكبة من فرجات غرف المنزل في أواني خزفية وتسقي بها أرضاً أعدتها لذلك وكلما نبتت نبتة ظنت أنه هو فقد أقسمت أنه سينبت كما تنبت أشجار الموز وسيخرج من غلف إحداها، ليطير إلى السماء ويعود من حيث خرج إلا أن خيبات الأمل كانت تلاحقها فما أن تبتعد النبتة بساقها عن الأرض قليلاً حتى تذوى وتذبل فتعجز كل محاولاتها لإعادة استقامتها، ولم تغير هذه العادة إلا حينما علمت أن الحمير تتبول بتلك الأرض، فلجأت إلى جعل كل غرفة من غرف المنزل مهيأة لأن تنهض ببذرة الموز.. كان بيتاً غريباً، أسقف منبعجة وأرض مزروعة وامرأة تدور بشرشفها ليلاً تنتظر من تستر عورته.

غالباً ما يتركها وهي لاتزال في ثورتها العارمة:

- سوف يأتي كما أراه في كل ليلة، ساعتها ستندم وتطلب عفوي ولن تجده.

* * * *

دأبت على المكوث بمقهى الشاطىء حيث يتوافد الصيادون ويتناثرون في أماكن مختلفة لا حديث لهم إلا البحر ومغامراته والبعض منهم يستغل هذا الوقت في رتق شباكه أو إصلاح قاربه الشراعي الذي مضغته رياح البحور العميقة، بينما يظل داخل المقهى مرتعاً للعب والضحكات واحتساء الشاي وإن كانت الغالبية تأنس للجلوس واجترار الحكايات القديمة.

لم يكن يستهويهم الصيد بالقرب من المدينة فتجدهم ينطلقون جماعات باتجاه السودان أو أثيوبيا وبالقرب من تلك السواحل يرمون شباكهم وآمالهم وأهازيجهم الممتلئة بالشجن وينتظرون ما يقذفه البحر لهم.

يقولون إن أبي كان يمتلك صوتاً رخيماً ينشط له أكسل الصيادين فيفز كالملدوغ يجذب الشباك ويشارك الصيادين ترديد الغناء.

في هذا المقهى لا يجلس إلا من ارتبط بالبحر

صياداً أو نجار قوارب أو بائعاً لسمك أو محرجاً. ولم أكن لأحظى بامتياز في هذا المقهى لو لم أكن ابن ذلك البحار.. الذي كان كما يقولون صياداً لم ينجب البحر مثيلاً له. فقد كان يعرف أسراره وخباياه وكثيراً منهم لا يؤمن بأن أبي يمكن أن يكون قد ابتلعه البحر كما يبتلع الأجساد الرخـــوة والتي سرعان ما يملها ويقذف بها على سطحه ويتخطفها الطير.

ويرجحون أنه ملّ حياة هذه المدينة التي تســـتقبل الغرباء وهي نائمة، أولئك الغرباء الذين يحولون بحرهـــا، إلى مستنقعات وأحواض لأسماك الزينة فلا تثور لكرامـــة بحرها ولأنه بحار عنيد مل هذه الميوعة وهجرها صوب المحيطات حيث يكون البحر فتياً.

يومياً أجلس في هذا المقهى أرتشف كؤوس الشاي وأستمع لتلك الحكايات العجيبة من مغـــامرات الصيـــادين حتى إذا دنى الغروب عدت إلى البيت لأجد أمي لاتـــزال توسوس بسيرة زوجها.

منذ أيام قدم أحد الصيادين (السوادنة) فكان محـــل حفاوة الجميع حيث أحاطوا به بإجلال وانثالت الحكايـــات ورائحة البحر، وأغنيات الدان دان.

كنت على مقربة منه فيرمقني بين الحين والآخر بشيء من التأمل والتفحص.. كنت ألمحه بعمته الطويلة والمتكومة على رأسه كجبل قطن متماسك وقد تناسقت مع ذقنه الكثيف المهذب المخلوط ببياض ناصع كانت عيناه شديدة اللمعان تومض ببريق خاطف ولها مقدرة على اختراق من تنظر إليه حتى أحسست به يتجول في خاطري، نظراته المتكررة أشعرتني بالضيق فهممت بمغادرة المقهى، إلا أن صوت شيخ الصيادين جعلني أتوقف وأستجيب له، تحركت باتجاهه كان يجلس عن يمينه ذلك البحار السوداني وعندما وقفت أمامهما قال له:

- هذا ابن الناخوذة حسين المعلى.

مد يده مصافحاً ومرحباً ترحيباً مبالغاً فيه فشعرت بالحرج وبادلته التحية.. قال:

- كيف حال أبيك؟

فتحرك شيخ الصيادين في جلسته مصوباً النظر صوبه باستنكار:

- ألا تعرف أنه متغيب يا شيخنا؟

فلم يعره اهتماماً، وغرس عينه في وجهي وهو لايزال يبث ابتسامته الناصعة وباغتني:

- ألازالت الوالدة تنتظره؟

هززت رأسي بالإيجاب فقال:

- لا تذهب. أريد أن أحدثك.

فأوسع لي بعض الصيادين مكاناً وجلست أنتظر بينما كان يسرد بعض حكاياته مع البحر، بعد أن فرغ المجلس إلا من كبار الصيادين استأذنهم وتنحى بي جانباً، وأخذ يلاطفني أوصاني أولاً بوالدتي خيراً:

- كن رحيما بأمك

- لكنها لا تملُّ من ترديد سيرة أبي الذي مضى من زمن بعيد.

فألقى كلمته بثقة ليرتج كل ما بداخلي:

- سيعود.

- هل تعرف عنه شيئاً.

صمت صمتاً مهيباً وإن ظلت عيناه تتفرسني بارتياب، وبنبرة مترددة تسأل:

- هل تريد رؤيته الآن؟

تشككت كثيراً بالرجل، وبتلك الحفاوة التي منحها له الصيادون، فرددت بآلية:

- أظنه قد مات من أمد بعيد.

ابتسم ابتسامة مظللة ولم يعقب على مقولتي وتناول كأس شاي فارغ وصب به ماء ورفعه إلى فمه وأخذ يتمتم عليه وأدناه من عيني لألمح رجلاً يجلس في قارب يغزل شراعاً بمهل وإتقان وقد أصابه الضمور.. كنت أحدق بدهشة، ولم أفق إلا على صوت البحار السوداني وهو يقول:

- هذا هو أبوك.. انتظره سيعود من البحر كما ذهب إليه.. إذا لم تنتظره لن يأتي

قلت متلهفاً:

- متى سياتي؟

هذا في علم لا أقدر على قراءته، ولكنه سيأتي.

وقبل أن يهم بالتحرك قال:

- إياك أن تتأخر عن لقائه فسيكون أحوج إليك ساعة أن يصل.

ونفض مؤخرته ماداً يده باتجاهي وضغط عليها بود، ومضى ينهب الطريق بقامته الفارعة وقبل أن يبتعد استدار إلي وقال: -

عليك بالانتظار مع غروب كل شمس وإيـــاك أن تخلف الموعد لأي سبب من الأسباب وإذا تغيبـــت عــن الموعد فسيلقي ببيتكم من إحدى الفرجات طائر ذاو هـــي روح أبيك، فحذار أن تغيب، وحـــذار أن يـــراك أحـــد.. مفهوم.

استثارني فصحت به:

- أين انتظره؟

كان يطلق الكلمات من خلفه:

- من جهة بزوغ نجوم الدب الصغير.

لم تشفني إجابته فانطلقت راكضاً خلفه. فاســـتدار وقد بدأت على هيئتيه علامة الغضب:

- لا تتبعني ويكفي ما سمعت.

كانت كلماته حادة ونظراتـــه عدائيـــة، فـــامتثلت لأوامره ولم الحق به، وواصل سيره الحثيث باتجاه البحر بينما كان كبار الصيادين يلوحون بأياديهم لوداعه.

من ذلك اليوم وأنا أخرج يومياً أنتظر مقدم أبي

** * *

تحاملت على نفسي بقدر الاستطاعة كي أنهض وأتجه إلى تلك البقعة النائية من الشط، لكن هذا الدوار منعني بالرغم من المحاولات العديدة التي قامت بها والدتي لإسكات هذا الطنين الذي ينمو من الداخل ويتحول إلى دوار عنيف يعصف بكل كياني فلا أقوى على شيء سوى الإمساك بوسادتي ودفن رأسي بين طرفيها؛ بينما كل شيء من حولي يموج ويدور ويدور ويتحول إلى دوائر تتسع وتضيق وتجذبني بقوة وعنف لأسفلها.

كنت أجاهد لأتغلب على هذا الدوار ولا شيء يربطني بالأرض إلا صوت أمي التي كانت تواسيني بصوت حان:

- تحامل على نفسك فقد أزف الموعد.

أبتعد عنها كثيراً ، وأغرق بدواري، أذهب معه بعيداً، وأمسك بنفسي كي لا ترحل فيجذبني وينطلق بي كالإعصار وأغيب، أغيب في اللاشيء، في أوقات هلامية متباعدة أسمعها، تستنهضني، وأجاهد وأغرق في دواري، أرى بحراً عظيماً، وأرى جسدي يتقاذفه الموج، يمضغه حيناً، وأنا أتخبط وأرفع رأسي، وأصعد وأبتعد قليلاً عن الدوائر السفلية لذلك الدوار، ومن بعيد عاد صوتها ملحاً

برتم الدفوف الثقيلة، وينشط حيناً ويذبل بأسى، أحسست بيدها تمشط شعري، ورائحة عطر ليمون فاحت من أسماك تقافزت بالقرب من رأسي، أخذت أجاهد للإمساك بصوتها وكأنه حبل نجاة بينما كانت تزفني حيتان البحر وأسماكه. فجأة تخلت الأسماك عن مصاحبتي وتغير صوت أمي فسمعتها تصيح بجنون:

- هذا طائر ذاو يسقط علينا.. انهض.. انهض.. انهض..

وكلما جاولت النهوض خارت قواي واتسعت دائرة الدوار فألمح أبي يسبح باتجاه الشاطىء بصعوبة فتتخاطفه الأمواج وصوته يصيح:

_ ساعدني.. انهض.. ساعدني.. انهض..

وتبتلعه دوامة كبيرة، فأراه يتلاشى، ليعود الطنين.. كانت والدتي تحاول إنهاضي وكلما حاولت النهوض ازداد الدوار، فألمح البحر يقذف بأمواجه ويسعى في الشوارع يدخل للمنازل ويسحبني صوب جثة انتفخت على سطحه لأسحبها ونتلاشى معاً في القاع.

* * *

خالد أحمد اليوسف

- من مواليد ١٩٦٠ (السعودية). أصدر ثلاث مجموعات قصصية: مقاطع من حديث البنفسج (١٩٨٤)، أزمنة الحلم الزجاجي (١٩٨٧)، إليك بعض أنحائي (١٩٩٦).

الرّنق*!!

أمسكتُ بكوة الباب وأدارتها يساراً لينفرج على صالة واسعة قد مُلئت بالنساء المنتظرات لدورهن، وجدتُ مكاناً شاغراً، أسرعتُ للجلوس فيه قبل غيرها من المقبلات للتو!، عيناها من تحت النقاب تبث النظر فاحصة وجوه النساء، وما يدور في عقولهن، تستنطق صمتهن، تزيح الغطاء، ترفع الأوراق التي بيدها، تكرر النظر فيها، تُعيد قراءتها للمرة الألف وكأنها الأولى لتستكشف مضمونها الذي لم يتغير منذ ارتباطها ودخولها حياة

مختلفة عما قبل؛ اسمها الكامل، عمرها، تاريخ زواجها، أي معلومات أخرى، وفراغ طويل لم يدون به شيء بعد، تقطع تفكيرها وشرودها، من تجلس عن يمينها...

* سلامات! ما بك.. أحامل أنتِ أم تبحثين عن الحمل أم..؟

تنظر إليها مستغربة حوارها المفاجىء، تبتر استفهامها بحدة متأنية...

- ما الذي أتى بنا كلنا؟.. أليس الإنجاب والبحث عن الأولاد، ألم تسمعي أنه أمهر طبيب؟ بل وقد حمل من علاجه أو على يده الكثير من النساء، أنا لم أترك عيادة إلا وطرقت أبوابها! وحتى الآن لم أصل إلى الأولاد، نصيب من الله!!

* لا تيأسي، فنصيحتي لكِ هو الاستمرار على العلاج عند الطبيب أو الطبيبة التي بدأت أول مرة معه. فقطع العلاج والانتقال إلى آخر يضيع عليكِ الفرص مما يضطركِ للبدء من جديد!!

- قد يكون معكِ حق..! لكن الملل، العمر، الزمن، الناس، كل هذه لا ترحم، مضى علينا عشر سنوات ونحن على هذه الحال وهو معي من طبيب إلى آخر!

* أولم يفحص زوجكِ مثلك؟

- بلى، ويؤكد أنه سليم معافى!

جاءت الممرضة لدعوتها إلى قسم المختبر والأشعة، ذهبت خلفها وقد قدمت الأوراق القديمة كلها إلى الاختصاصي. قبل البدء بالسؤال أو أخذ العينات.

كان طلب الطبيب المُلح حضور الزوج قبل الدخول في خطوات العلاج، ولم يكن يحضر معها إلى الأطباء أو الطبيبات السابقات، بل كان دوماً يضعها ويذهب إلى عمله، بعد أن يطمئن إلى دخولها في صالة الانتظار. كررت كثيراً طلبها له بضرورة التحليلات لكليهما وكانت إجابته الدائمة:

* الحمد لله أنا بخير.. وقد حللت عدة مرات وكلها إيجابية.

هل أُعطيك الأوراق لتصدقي كلامي!؟

سكنتْ طويلاً واطمأنت أكثر لثقتها المفرطة بحديثه، ولكن ماذا تفعل إذا كان الطلب من الأطباء أنفسهم؟ ماذا ستقول له؟ كيف تدخل معه في قناعة ثابتة وطلب كهذا؟. أجابت الاختصاصي بأنها ستتصل بزوجها

الآن، وسترى مدى تجاوبه، لحظات بعد ضغــط الأرقــام الخاصة به وكان صوته من الطرف الآخر...

- نعم حبيبي أنا منى.. أُحدثك من العيادة...

* هل انتهيتِ بهذه السرعة؟

- لا.. عيوني، الطبيب يُلح عليّ في طلبك!

ماذا؟ سلامات! أرجو ألا يكون الأمر خطــيراً أو حالتك..!

- لا.. لا.. لا تنزعج؛ فقــط يُريــد أن يــراك للحديث معك!

مضت الدقائق وراء بعضها ببطء ممل.. انتظاراً لزوجها الذي وعدها بالمجيء حالاً، كانت واقفة ثم جالسة، ثم أطلقت رجلها ذهاباً وإياباً لعل الوقت يقطع القلق، رغم استقراره معها منذ سنوات! سمعت في الممر الثاني صوته المميز قادماً يسأل عنها، خرجت إليه مسرعة تمسك بيــده ليدخل إلى الاختصاصي المخبري، حيث ينتظرهما...

* نعم يا دكتور.. أنا زوج منى.. أأنت طلبتني؟

- هذا برنامجنا المعتاد. الزوج والزوجة يكونــان معاً في عملية التحاليل وبالذات لمثل حالتكما.

* لكن.. أنا سبق لي التحليل، والحمد لله كل شيء على مايرام!

- حتى لو كان ذلك، ولتحضر كذلك أوراقك، هيا أرجوكما ادخلا في الغرفة الأخرى!

نهض زوجها بعد أن تغيرت ملامح وجهه، وتداخلت الألوان على محياه. استشاط حنقاً، أراد الخروج نهائياً، التفت يمنة ويسرة، صدرت من صدره زفرات متتالية تعبر عن حالات الإحباط الساقطة عليه عند كل بدء مراجعة علاجية.. ثم متابعة، ونتائج مملة طويلة الأجل. تسربت إليه أحاسيس الختام للعبة ذات فصول متعددة المشاهد والرؤى، التي كان يقوم ببطولتها أمام زوجته، وعند اصطفاف المشاهدين وإصرارهم انكشفت ستارته المظلمة. ضجرت زوجته من مرآه المتوتر...

* ما بك يا حبيبي؟ ماذا جرى لك؟ أنت غير طبيعي!

- نعم غير طبيعي! لأن الوضع والحالة تتكرر معنا عند كل عيادة ندخلها!

* لكن مادمت واثقاً من نفسك فلماذا تغضب؟!

– لأنهم لا يثـقون بالتحاليل السابقة ! ويصـرّون على الكسب المادي!

* هذه المرة فقط! من أجلي.. ثـم هـات الأوراق التي لديك!

– نعم!، ماذا؟ الأوراق.. التحـاليل.. لا.. لا.. لا يمكن أبداً.. ماذا تريدون مني، حالتي.. حالتي..!!

كان رفضه مصحوباً بقلق. اندهشـت مـن هـذه الحالة، تلك الرعشة التي أصابته ولم يسبق لهـا أن رأت زوجها في وضع كهذا!.. انهالت السنوات العشر عليها في لحظة واحدة، عدد العيادات، عناوينها، أسـماء الأطبـاء والطبيبات، الأدوية، المواعيد، الانتظـار، الفحوصـات، المحاولات الساهرة للأدوية، التنقل من مدينة لأخرى؛ بحثاً عن أحدث الطرق.. أخيراً ينطق بكلمات مضطربة...

– نعم حالتي.. أنا عقيم.. عقيم.. أنا.. ع ق ي م!!

---

* الرنق: الماء الكدر

* * *

أحمد الدويحي

- روائي من مواليد ١٩٥٤ (السعودية). أصدر مجموعتين قصصيتين: البديل (١٩٩٠)، قالت فجرها.

قصص

- ١ -

جدي (أطال الله عمره) ضئيل الجسم فولاذي الإرادة، لازلنا نأتمر بأمره، والجيل التالي لنا يصعب أن يختار، لا يصح أن نخرج عن طاعته ونواهيه، كل شيء في حياتنا مرهون بما يخرج من محرابه، يحدث أن يتلقى تهويمات وأحلاماً من العالم الآخر، فيفرض إرادته برباط الدم والقربى، يتأنق نهار الجمعة وليلة السبت. عاداته

طقوسٌ نعرفها وننفذها بحذافيرها. مكانه العالي يفيض من حر ماله، وليس لنا إلا السمع والطاعة والتنفيذ. وحين لا يكون هذا، تصبح كلماته أمضى من حد السيف، الصورة ضبابية، ضاع جزء (من الحديث) الآن وبقيت الكلمات.

أبي في سنوات الشدة يغلي غيظاً وغضباً، العصبية تصل بأبي إلى انتزاع (العرقة) من ظهر الثور، وإطعامها من جلدي، لنمضي معاً أنا والثور، ونعود في مجرة واحدة، وكل ما في الأمر أن (البئر) شحت، وماء (الفريدة) لم يعد يسق القصبة الفارعة، ويملأ نهايتها، ويروي شجيراتها العطشى، ونساء القرية يملأن قربهن بالماء في غفلة مني، وأبي عند النهاية، رابضٌ بين الزرع، واضعٌ ذقناً خطها الشيب بين راحته، ومسندهما بعصى المسحاة، وصوته يلسعني من بعيد، وكلما شك أن في الأمر شيء صاح بي:

- حرك رجليك.. الليل فينا..

وأنغز فخذ الثور المتعب، لنملأ ذهاباً وإياباً عيون نساء القرية، وقربهن بالماء، وذات مرة تفتق ذهن أبي عن فكرة جهنمية، يصب شيئاً في البئر ليفسد ماءها، يحرم النسوة منه، لكن جارنا وشريك أبي (الهوني) نصحه بأن

الضرر سيصيبنا، وسيموت زرعنا، فعف أبي عن فكرته، وظللت أنا والثور نتداوى بعرقة أبي كلما شاح ماء البئر، وعصفت بنا الشدة. أفكر مع أبي في حيلة تنقذني من هذا العذاب الهائل، و(عرقة) أبي هي الحل الأخير.

- ٢ -

اشتد غضب أبي، ولوح لي بالعرقة فقررت أن أهرب..

أهرب إلى البيت، وفي الداخل أظل أنا وصاحبي نكشف لبعض بعض جراحنا، نغفل قليلاً ونتبادل الضحك واللعب والضرب، أقدر أن جدي يرقد في داخل (علوه)، ويتكوم كطفل رضيع داخل جبته، مستغرقاً في أحلامه، فأنبه صاحبي أن علينا أن نلتزم الهدوء...

اكتشفت بعد لحظات أن جدي غير موجود في (علوه)..

وتدور بي الوساوس، وأظن أن في البيت جريمة، ربما حدثت، وأقدم أحدهم على خطف جدي، أو إخفائه، وإذ أنا في حيرتي، يخرج جدي وفي يده إناء الماء،

يتفحصني ويعرض من غير أن يسلم علي، وتزداد دهشتي إذ لم يسألني أو يخبرني، أو يذيقني طعم ما معه كما يفعل معي دائماً، حينما يخصني بشيء من هذا..

صحوت وغفا جدي وحضرت (رمزية) من داخل (علوه) تحمل عسلاً وتتبعني وتفهمني معنى أن يكون كل شيء حاضرا، وأذاقتني طعم العسل وسألت:

- أين جدك.؟

وأردت أن أجيب:

- في الظل ولد.. في الصحو بلد..

لكن امرأة ورجلين يدخلون، أحسب أنهم جاءوا لرؤية جدي.

امرأة تحتضن طفلة، وتربض بجوار صخرة..

وهذا عم سعيد يتبعه آخرون، أشعر في حضوره بضآلتي، وحصار طفولتي.

يأتي في تلك الصباحات الجنوبية، يقعدني بين فخذيه، وسكين الحلاقة في يده، وفي الأخرى إبريق الماء، ليغرقني كفراشة، ابتل جناحاها.

- ٣ -

أرملة عجوز رمقت بقرة بنظرة مدربة، ربما في داخلها، بسملت وقسّمتها، حامت حولها وحكت رقبتها، أدخلت يدها بين قوائمها الخلفية، الجد مسح عنق البقرة، وحاذى المرأة: (لكِ فيها رغبة..؟) وهوى بكفه على ظهر البقرة: (في الثالث أو الرابع) وضرب في القلب سؤال.

قالوا: (الشركة هيشة مندولة)، والأرملة العجوز من بنات البيت وأولى بها، انفرجت أسارير المرأة، وندت شفتاها بوله عن ابتسامة جذلى، تقتني البقر لتقيها غيلات الدهر، وسر العوز.

انتصب رأس البقرة: وقد كان إلى حد السكين أقرب، فابتلعت الصمت وقدرت سنها، سداس ووشمها سواد على حمراء.

الحفيد وحيد في الساحة أود لو شف بر الجد.

- ٤ -

ها هو جدي، تخرج روحه من (علوها) تشيّعها العيون المتربصة الملهوفة..

تخرج ممشوقة ناصعة البياض وتعبر الأزمة..

قال: إنه خرج ليعزق أرض أمه، وقال إن أرضها أورثته الأهوال، وإن الناس ظلوا يرونه في خروجه، الخروج إلى الأرض الولهانة وأعاد فيها ضمير الحياة ورقصت أشجارها وقيعانها...

وأجيء إليها من سفر، أدفع همي المتوارث من بلد بعيد، أتسلل إلى أرض أجدبت، أجيء إليها من سفر، ومن محطات العتمة والتشرد البعيدة، أتمدد طويلاً، ألهو وأبعثر همي وصاحبي، ننتظر السفر إلى مدن بعيدة، باردة غريبة لا نعرفها..

أجيئها وبياض روح جدي تحسم المسائل المرجأة..

وتخرج روحه من (علوها) نقية من أوجاعها، والناس تتقاطر لرؤيته ماضياً كبياض الفجر.

تتجاهلني، تمعن في تشريدي وضلالي.

أبي التقط (العرقة) وانطلق في إثري...

قيل إن أبي يحقد على (عرقته) وأتعبه حملها..

أحذف رؤوس الأشجار العالية، أهز أغصانها،

أدلي رأسي في بركة الماء الآسنة، وأعد أحجار البنيان الصامدة، أفتش عن بقايا أشجار لم تجز، وأزهار ذابلة.

بيض وثلاثة أزواج عصافير، تستوطن الجدار المتداعي، ولهفة لا تحد، تدفعني لالتقاطها..

صاحبي شرب التشرد ولفظته المحطات البعيدة، يمعن في البحث عن تفاصيل حياة جديدة لفصائل العصافير المعتقلة.

هوامش

العرقة : السوط الذي يساق به البقر.

الفريدة: السانية بثور واحد.

علوة: الغرفة العلوية.

هيشة مندولة: البقرة المشتراة للذبح ظهر أن في بطنها جنين.

★ ★ ★

نـــورة الغـامدي

- من مواليـد (السـعودية).
أصـدرت مجموعتيـن قصصيتين: عفواً لازلت أحلم (١٩٩٥)، تهواء (١٩٩٦).

البريئة

عمتي "زهية" صانعة الخصـاصيف فـي الحـي الغربي الجهة المهجورة من البلدة. من الذي لا يعرفهـا؟؟ قال أحدهم تلك العبارة منذ اثنين وثلاثين عاماً وهو يعـبر أزقة الحي الضيقة إلى الجهة الأخرى... ويبدو أن الخطوة قد امتدت وضاع وتلاشى الاسم العريق في الحي الغربي. وبقي نقش عمتي "زهية" بالبوية الخضراء عند مدخل الدار من الداخل لا يراه إلا من عبر المـنزل الطينـي القديـم وأغلق دونه الباب. "ياعين ذوقي سرقة ثم نامي" تداعـت بعض أحرف النقش ولم يبق منه إلا ما تحفظـه ذاكـرة عمتي "زهية" التي تجاوزت السادسة والثمانين.

- ولكن يبقى السؤال من الذي نقش قول عمتي "زهية" الذي أطلقته يوم أن ضربها رجال الحي منتصف ليلة عيد الأضحى عند باب دارها وشق أحدهم شفتها السفلى التي صارت فيما بعد خطاً أسود يقسم الشفة المكتظة ويزيد الجنون جنوناً.

- ابنتها.. التي ماتت منذ سبع سنين قالت إن من كتب عبارة "زهية" على جدار البيت من الداخل خلف الباب مباشرة هو نفسه ذلك الرجل الذي عبر الحي منذ اثنين وثلاثين عاما. ولكن كيف؟ ومتى؟ وابنتها صمتت إلى الأبد.

- نساء الحي.. الجديدات لم تشغلهن "زهية" البياعة وهن يصرفن النظر عن بسطها التي تصنعها من سعف النخيل وتبيعها في سوق الخميس كلما شعرت بحاجتها إلى نقود. وعمتي "زهية" لم تعد ترتاد سوق الحريم كثيراً كما كان في السابق ولم يبق من رفاقها القدماء أحد، لكن عندما أوشك الحي أن يخلو من الحس.. طرقت الأبواب الفارهة وسط البلد وسألت أصحابها أن يفتحوا دورهم القديمة في الحي الغربي لكل من أراد الستر.. فتحول سوق الحريم إلى سوق تابع للحي الذي انتعش.. وعلقت على أبوابه فوانيس الكهرباء.

وتوسطت دارها الدور وفاحت رائحة "البخور والجاوي" وأصوات "المهاريس" وفرشت الخصاصيف التي تصنعها "زهية" بيديها من سعف النخيل عند الأبواب الخشبية المنخفضة وقت العصاري وتطايرت في الأجواء البرية روائح المستكى وزعفران الهند.

وعمتي "زهية" التي انحنى ظهرها وتحدب لاتزال ترش الماء على رمل الحوش ثم تفرد "خصافها" الملون وتغني بصوت هزه طعن الأيام "يا عين ذوقي سرقة ثم نامي". طولها الفارع يظهر عندما تتمدد على بساطها وتلتحف بردائها المعصفر والمدعوك بالصندلية والورد الطايفي وبياضها المخلوط بالسمرة ورسوم جسدها المحكم الصنعة لا تفطن له إلا بعد أن تصعد العتبات الثلاث إلى حيث هي وتناديها.

* عمتي "زهية".. عمتي زهية

تنفر من رقدتها.. وتشير إلى علب الحلوى الطحينية

* هناك خذ ما شئت!!

تلعق شفتها المشقوقة بطرف لسانها.. ثم تمرر

عليه إصبعها.. ثم ترمق الإصبع الطويل.. بنظرة بعيدة وتتسلل إلى داخل دارها الذي يخلو من المطبخ..

- كيف تأكل؟.. لا أحد يعلم كما تقول جاراتها القريبات عندما يفحصنها بعيون ترقرقت بدموع الحسرة في حدقاتها وهن يرين أسنانها المنتظمة وبياضها وكيف يتعمدن أن يلتصقن بها ليتروحن رائحة جسدها الفارهة ويلاعبنها ليكشفن عن ساقيها التي طالها الزمن فتشرق ملساء كبلور.

إحداهن تجسست عليها وأقسمت بأنها رأتها تخلط "حبوباً" غريبة لم تعرف منها سوى الحبة السوداء ثم تضعها في فنجان قهوة وتضع عليها ربع ملعقة صغيرة من صابون [التايد] وتسكب عليه الماء وتشربه وعندما استحلفتها بالله..

* عمتي بالله.. اخبريني ما السر وراء هذا؟؟

تقول دون أن تكثر.. المعدة كإنائك المليء بالدرن. ألا يحتاج لنظافة؟

صمتت بعدها وعندما حاولت المرأة أن تفتح فمها نظرت إليه نظرة فاحصة فصمتت.. وابنتها قبل أن تموت

قالت لجاراتها.. أمي أمورها معلنة ولكن من يلح عليها فهو في عينها جبان تغلب عليه شهوته، وعمتي "زهية" عندما سمعت بالرجل الذي زار الحي وسأل عنها ولم يعطه أحدٌ جواباً.. خرجت إلى حيث المكان وألحّت في السؤال.. وركضت إلى الطريق العام. وأشارت لكل العربات العابرة.. لكن الرجل العابر السبيل اختفى تحسست بطرف اصبعها شفتها السفلى عندما ارتدت عائدة ورأت كما يرى النائم - "زهية" البعيدة واستحضرت من صندوقها العتيق قرطاس الغائب وقلمه ومحبرته الجافة.. وتدفقت حوادث صباها واستحضرت كل رجال الحي الغربي الذين أحاطوا بدارها منذ ستين عاما - وسحبها "عريفة الحي" من شعرها وجزه من منتصفه..

* أنت فاجرة... وهذا شعرك أنثره على رؤوس كل أولئك..

ثم التفت إلى الرجال الذين تصايحوا وكل يحاول أن يبعد عن نفسه الشبهة.. تصايحوا.. فاجرة.. شهقت وهي ترددها وانثنت أكثر وقبضت على طرف خصافها الملون.. عاد إليها الهاجس.. وجاوبت أصداء الأصوات البعيدة.

* أنا يتيمة بينكم فلا تلصقوا بي العار.

انثنى عودها اللّدن على لطمة عنيفة تلتها أخـــرى فانبجس الدم في شفتها السفلى.

* أنت فاجرة...

علا الصراخ وانقسم رجال الحي الغربي ونســاؤه الغيارى إلى ثائر على "زهية" الفاجرة وإلى مشفق علـــى الفتاة الساحرة التي أشعلت الشهوات بصمتها وحذرها.

* أقسم أنني بريئة.. وهـــذا بيتـــي والليـــل فـــي منتصفه.

* لنفتش الدار...

انسل الرجال إلى الداخل.. لا يوجد شيء ســـوى السعف المنثور في جنبات الدار والمغزل العود (وطباخة) ذات فتائل قديمة ولحاف أبيض تفوح منه رائحة الصندلية.

انقسم القوم إلى نصفين.. لسان يصرخ:

* اخرجوها.. من القرية

* وآخر يتخشى في قوله.

* هي ابنتنا فكيف نطردها؛ ولكن ليتولى كل رجل

منا حراستها ليلة أو ليتزوجها أحدكم ويرى.. ولو كان بي قوة لكانت حليلة لي ولكني شيخ في التسعين.

الصمت البارد كان هو الحكم اللّدود.

واتفق القوم على أن يحرس كل رجل بابها ليلة.

مسحت "زهية" دماءها المهدرة ولملمت نثار شعرها من أطراف الحي.

وخرجت في صباحها وارتدت ثوب العيد.. وطرقت الأبواب.. ضحكت ورقصت.. وطوت جوفها على دم أسود يحرك رقصاتها ويرقق نغمات ضحكتها الكسول.

وتناول الرجال حراستها.. أربع وأربعون ليلة وهي على مغزلها الليلي تغني.. "يا عين ذوقي سرقة ثم نامي".

وعندما يأتي الصباح تخرج لتبيع بسطها الملونة بالأخضر والأصفر والأحمر لترى وهي تغلق بابها بعد أن يمسح الحارس بيتها من الداخل ويطمئن إلى أن "زهية" "زاهية النساء وزهوتهن" كما وصفها عابر السبيل الذي مر بالحي منذ اثنين وثلاثين عاماً..

في الليلة الرابعة والأربعين كان آخر الحراس هو "عريفة الحي" وسيدها الذي جزّ شعرها ونثره للريح.. لم تتم تلك الليلة.. وما أن صاح الديك وتململت الجوارح حتى صكت الآذان المذهولة – صرخات امرأة.. صرخات مصدرها حنجرة ناعمة مبحوحة كفلق الفجر الناعس؛ اجتمع رجال الحي ونساؤه على باب "زهية" وضرب "العريفة" رأسه مصعوقاً عندما خرجت زهية إلى كل تلك الجموع وبجانبها بساط يمشي على قدمين طويلاً وملوناً.

أنامته بهدوء على الأرض.. وبرمته برمة.. برمتين.. ثلاثاً. ليخرج منه رجلاً ملثماً.. غافل القوم إلى حيث لا يعلمون.. بعد أن احتمى بظهر "زهية" التي تصدت لأهل حيها.

* لقد بات هذا الرجل في منزلي أربع وأربعون ليلة. أطويه في هذا "الخصاف" واسنده على الحائط.

في الليل ينام فوق سطح داري وفي الصباح أطويه في قلب الخصاف.

★ ★ ★

عبدالعزيز صالح الصقعبي

- روائي وكاتب مسرحي من مواليد ١٩٥٨ (السعودية). أصدر أربع مجموعات قصصية: لا ليلك ليلي ولا أنت أنا (١٩٨٣)، فراغات (١٩٩٢)، الحكواتي يفقد صوته (١٩٩٠)، يوقد الليل أصواتهم ويملأ أسفارهم بالتعب (١٩٩٣).

أقنعة متعددة والوجه واحد

مشهد يتكرر دائماً

مشهد لامرأة تترقب دخول ذلك الرجل

مشهد يتكرر دائماً

الرجل يترقب لحظة إزالة ذلك الغطاء الأبيض الشفاف عن وجه تلك المرأة

مشهد يتكرر دائماً

الرجل يترقب المرأة، المرأة تترقب الرجل، هما يترقبان شيئاً مبهما قد لا يتوقعانه مطلقاً.

مشهد قد يتكرر دائماً عندما لا يجد أحدهما الآخر

***

تناول كوب القهوة بهدوء، إحذر أن ترجف يدك، ودعنا نتحدث،

كما أخبرتك سابقاً.. أنا لا أحمل داخلي حقداً على أحد.. ربما تشك في ذلك، لك أن تشك، ولكن ربما تكـــون أنت السبب في ذلك، أنت.. حتى هذه اللحظة.. لم تتغـــير، صرخت في وجهك عدة مرات، حاولت أن تضحك، تبكي، تغضب، تصرخ في وجهي طالباً أن أصمت، لكن.. أنت.. أنت.. ذلك الصمت الرهيب، وجوم، أجل وجوم.

هذه القهوة لا تحفل مطلقاً بأن تكون من يحتسيها، أو يكون غيرك..، وهذا الكوب يقبع دائماً في موقع باهت في هذه الغرفة، ربما أكون سبباً في انعتاقـــه مـــن وطـــأة النسيان والغبار.

حتى هذه الغرفة - والطائف يحوي المئات مثلهـــا - اتشحت جدرانها بدكنة الزمن، هذا أنت أيها الصديـــق أمامي، قهوتك مرة كما عهدتها، وصوتك يحلـــو لـــه أن يتزين بوشاح قصيدة.

هل أسمعتني القصيدة؟.

لن تتغير، لن تبتسم، لن تصرخ في وجهي، لن.. لن.. وأشعر بأنك بدأت تصاب بالملل من حديثي عنك.

دعك من هذا وأكمل قهوتك.

***

لرمان الطائف نكهة خاصة، من يذقه مرة تتبت في أعماقه بذرة فنان، هذه الرمانة قطعة من جسد أنثى تفجر حيوية ورغبة في اقتناص لحظات حب لأرض تتسم بالخصوبة والعطاء، لم يكن هو الفارس الذي رحل بعيداً بعد أن ملأ الأصقاع صيتاً، ولم تكن هي الحلم.

أشعرتني بحبك لهذه النبتة، تبيعها صيفاً، وتسعد عندما ترى الناس يتهافتون عليها في دكان والدك الصغير في "باب الريع"، قلت لي سأقول قصيدة عنها، أعلم أن في داخلك هاجس قصيدة، يتفجر دائماً في لحظات يأس، لا شيء مطلقاً أصعب من أن تعيش اليأس، أنت وهذه المدينة وبقايا ذكريات معها، هي انبثاقة القصيدة وهي موتها، لم يكن والدك رديئاً عندما أشعرك بعدم رغبته في بقائك معه في ذلك البيت الصغير، لقد وضعت على وجهك قناع رجل، فلا مكان لرجل مع سبعة من الأطفال، هذا ما أردته

أنت، حتى تلك الكتب التي دأبت على جلبها معك كل يوم سيعيث بها الفئران والصبية، أعرف أنه يوم صعب عندما قررت أن تغادر الطفولة مرتعاً وذكرى، لم تجد سوى هذه الغرفة ملاذاً، هكذا توقعت، ربما يكون ذلك صحيحاً لو استطاعت أن تقاسمك دفء الغرفة، أهو قناع واحد فقط ارتديته، قناع الرجولة، اليأس، الشاعر، العاشق، أقنعة متعددة والوجه واحد، حتى ذلك اليوم الذي أخبرتني بحصولك على عمل، كنت تضحك. لم أستغرب مطلقاً ذلك، حتماً ستحصل على قناع جديد، قلت لي: هي مغامرة، سأدرس في "الليلي"، حزنت كثيراً لأنني سأفتقد زميل الفصل ولاسيما وسنوات قليلة تفصلنا عن أسوار الجامعة، حقاً هي مغامرة، ولكن ماذا ستعمل، لاتزال تضحك، لم يكن ضحكاً صاخباً مثل ذلك الأستاذ المصري الذي يلقي نكتاً مختلفة عن عبدالناصر، تتذكر عندما قال إنهم في مصر يطلقون عليه ألقاباً متعددة خوفاً من الاستخبارات المصرية وأنه فضل أن يعمل في السعودية هرباً من الاعتقال، عندها طلبت مني أن أسأل والدي الذي أدمن سماع لندن وصوت العرب أملاً في تحرير فلسطين عن صدق مقولة الأستاذ المصري عن الاسم الذي أطلقه بعض المصريين على عبدالناصر، "رجالها لمن غلب"

إجابة مقتضبة من والدي، قلت لي حينها لـــك أن تفخـــر بوالدك، إنه يعرف كثيراً عن هذا العـــالم، رددت عليـــك ووالدك يجب أن تفخر به أيضاً حتى ولو كان لا يســـتمع إلى المذياع ولا يعرف القراءة والكتابة؛ لكنه اســتطاع أن يفتح لي نافذة إلى المستقبل من خلال دكانه الصغير. لـــم تكن إجابة والدي مقنعة لي حينها لأنني لا أعرف أن ثمة أقنعة تتغير بتغير الظروف والأزمنة، حاولت أن تتذكـــر المقولة؛ صحيح ذلك.. لم أهتم وقتها بتلك المقولة كاملـــة، سألتني مرة أخرى نساؤها جميلات، قلتُ لك اسأل أستاذنا المصري، حقاً مغامرة أن تغادر الفصـــل نهـــاراً، يـــالهذا العمل الذي سيجعلني أفتقد صديقاً يجمعنـــي بـــه الكتـــاب ليرحل بنا بعيداً عن أجواء الدراسة الرتيبة إلى عالم الكلمة حيث اللاحدود بضحكتك المنزوعة من داخلك بألم قلـــت سأعمل كاتباً قذفت بعدة أسئلة أمامك علّك تلتقط أحدهـــا، مبدوءةً عند من وأين ومتى وكيف وهل.؟ ولـــم تجعلنـــي أكمل سؤالي الأخير قـــائلاً : والأمـــر يســـير لدرجـــة لا تتخيلها، مجموعة أوراق وقلم وأوقات موزعة بين الـــبريد والمحكمة والبلدية والإمارة، وبنبرة مختلفـــة قليـــلاً قلـــت "كاتب معاريض" ووجهت سؤالك لـــي ألديـــك طلـــب أو شكوى؟ تذهلني قدرتك السريعة على تغيير الأقنعة، قلـــت

مباشرة نعم لدي شكوى؟ من جنونك، وطلب بأن تعود إلى الدراسة صباحاً وأن تكتفي بما تحصل عليه من والدك لقاء عملك معه في دكانه الصغير، أحضرت عدة أوراق وقدمتها لي، قصيدة جديدة، فعلاً تذهلني قدرتك السريعة على تغيير الأقنعة، قلت لي، حاولت أن أكتبها منذ زمن وعندما انتهيت من القصيدة لم أجد أفضل من أن يكون عنوانها.. رمانة...

***

مشهد يتكرر دائماً...

انتشل جسدي من تلك اللحظة، لماذا يحاصرني الوداع، أودعك، ستغادر، أفيق من حزن الرحيل، كانت شمس الطائف تطأ الأرض إعلاناً عن ثمة وداع، هكذا توهمت، منذ أن قرأت تلك الأوراق التي ادعيت أنها قصيدة.

منذ متى كنت أنسى أن جسدي ملاحق من قبل ظلّي في أوقات كثيرة، أأخاف من ظلّي الذي يلاحقني، أنت جسدي وأنا الظل، أنا الكلمة التي تغادر فمك حين تتحدث عن إحدى القصص التي قرأتها أو لامية العرب

للشنفرى والتي تحفظ أغلب أبياتها، ليتك تكون الصمت، ليتك تكون البعد، ليتك تكون ماذا وأنا الجسد الملاحق بظلّه.

***

مشهد يتكرر دائماً

مشهد لامرأة تترقب دخول ذلك الرجل

بهدوء تناقلت بنات الحي نبأ انتقاله إلى تلك الغرفة واضعاً أولى خطواته بثقة على عتبة عالم الرجولة، كنّ يعرفنه صبياً يحمر وجهه خجلاً عندما يتحدث إلى إحداهن، كل واحدة منهن بدأت تتخيله رفيق المستقبل، كانت هي أكثرهن جرأة عندما طلبت منه نسخة من سيرة عنترة بن شداد، لم تكن تهوى القراءة، لكن ربما تصل إليه من خلال كتاب، ربما يكتب لها رسالة ويضعها في داخله، وحتماً سترد على تلك الرسالة وعندها..، وإذا لم يحدث ذلك، عندما يقدم لها الكتاب خالياً، دون رسالة مرفقة ستعيد إليه الكتاب مرفقاً برسالة شكر ولا مانع من أن تضع دوائر بالقلم الأحمر حول المواقف والكلمات الغرامية بين عنترة وعبلة. كان السؤال مباشراً عندما التقته في الشارع الضيق المؤدي إلى بيتهم الطيني، هو

يعرفها، ويشعر بأنها مازالت طفلة، رغم ذلــك الوشــاح الأسود الذي تضعه على رأسها، "أُحب القراءة.. وأرغـب في قراءة سيرة عنترة" تذكر أن ذلك الكتاب كان معروضاً في إحدى المكتبات في "برحة القزّاز" لكنــه لـم يقتنـه، "للأسف لا يوجد عندي هذا الكتاب.. موجود في مكتبـة.. وعموماً سيرة عنترة قصة مسـلية يسـتطيع والـدك أن يشتريها من تلك المكتبة"، تخيل نفسه مدير المدرسة الذي يوزع نصائحه ومشوراته على كل طالب ومدرس يقابله، "شكراً" ممزوجة بالخيبة قذفتها في وجهه وغادرته، شـعر بالندم، ربما والدها لا يرغب فـي أن تقـرأ ابنتـه تلـك القصص حتى لا تفسد أخلاقها، هو يعرفه جيداً ويخـاف من لسانه الساخر الذي جعله متميزاً عند أهل الحي، فكـر أن يشتري نسخة من الكتاب ويجعل أخته التي تلعب دائماً معها تقدمه لها، عدل عن فكرته هذه، ربما تجد غيره من يحضر لها الكتاب، لم يسأل نفسه مطلقاً لماذا هو بـالذات طلبت منه هذا الكتاب، ولماذا سيرة عنترة العبسي، حدّث نفسه قائلاً "الكتاب متوفر في كل مكان وإذا لم تقرأه الآن ستقرأه مستقبلاً" بينما هي قد قررت أن تسأل أختـه عـن الكتب التي يحرص على قراءتها.

***

مشهد يتكرر دائماً

الرجل يترقب لحظة إزالة الغطاء الأبيض الشفاف عن وجه تلك المرأة.

يبقى "حي الشهداء" شاهدا صامتاً لحادثة بدأت مع سنوات البراءة الأولى، قُدّر لها أن يكون والدها صاحب ذلك المبنى الكبير، سكنت مع والديها في الجزء العلوي من ذلك المبنى، قيل إن والدها يملك عدة مزارع في الجنوب وزوجة شامية أنجبت له ابنة واحدة فقط، حلفت إحدى النساء بأنها شاهدت الشاي يمر عبر حنجرتها البيضاء، قيل إنه في إحدى سفراته إلى الشام تزوج تلك المرأة ذات الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين، أطلق أهل الحي على تلك الطفلة "بنت الشامية" نظراً لما اكتسبته من ملامح والدتها، استطاعت أن تكتسب عدداً من الصديقات، لعبن معاً، كان يقود دراجته الهوائية متوجهاً لذلك البيت الطيني الذي يقبع في آخر الشارع، كانت تلعب وكان يقود دراجته مسرعاً رغبة في كسب أطول وقت لاستذكار دروسه مع صديقه الذي حقق بعض التفوق في دراسته. أرض ترابية ومجرى لبقايا سيل، هي تلعب وهو ينظر إلى ذلك الشعر الأشقر الذي لم يألفه مطلقاً، طفلة كانت تلعب،

وصبي يقود دراجته، وأكوام من التراب، وجذع شجرة جرفه السيل.

أفاق، كانت الطفلة تبكي، شعر بثقل في رأسه، بقع من الدم تناثرت على ثوبه، عنقه، رأسه، وحفنة من القهوة تضمد جرح الرأس، بعينيها الزرقاوين تأملت جرحه "الله يهديك انتبه لطريقك"، عرف أنه نزف كثيراً وقد أغمي عليه عندما سقط من على دراجته، وقد أسعفته تلك المرأة، رغم الألم فقد كان سعيداً لرؤيته تلك المرأة التي تحدثت عنها نساء الطائف كثيراً.

***

مشهد يتكرر دائماً

الرجل يترقب المرأة، المرأة تترقب الرجل، هما يترقبان شيئاً مبهماً قد لا يتوقعانه مطلقاً.

لم يكن الحديث شائقاً مطلقاً، قمت بتقليب بعض الصحف، كنت تبحث عن شيء ما "هموم كثيرة لهؤلاء الناس.. لم أتوقع ذلك إلا عندما بدأت بكتابة عروض الحال لهم" كنت تقوم بتقليب الصحف والتحدث عن بعض من طلب منك كتابة شكوى، طلباً أو رسالةً، ثم فجأة قلت

"أتدري من قابلت اليوم" لم تترك لي مجالاً للإجابة، قلت مباشرة "والدها" وبريق الفرحة يشع من عينيك "لقد طلب مني أن أعمل في مؤسسته "حدجتني بنظرة عندها أشرت إلى بقايا الجرح في رأسك لتنتشلني من مأزق عدم الفهم، أضفت "بنت الشامية لم تعد طفلة، سأعمل منذ الغد في مكتب والدها، سيثق بي، ستكون الخطوة الأولى للتقرب منها". لم أجد غير الصمت ملاذاً لأتأمل القناع الجديد الذي أوشكت أن ترتديه، انتشلني صوتك من دوامة الصمت، كنت تشير إلى بعض الكتب، "هذه لإحدى صديقات أختي، تهوى القراءة، بدأت بقراءة بعض السير الشعبية مالبثت أن تطورت قراءاتها لبعض الأعمال العالمية المترجمة وكثير من الدواوين الشعرية، وهي الآن تكتب خواطر شعرية ربما أفاجئها بنشرها في إحدى الصحف اليومية سواء باسمها أو بذلك الاسم المستعار الذي توقع به بعض الرسائل الوجدانية التي ترفقها مع بعض الكتب لأطلع عليها". كنت تتحدث، ومازالت شخصية مدير المدرسة الذي يوزع نصائحه على الجميع مسيطرة عليك، بالرغم من هذه الصداقة التي تربطنا، فقد كنت مغرماً بذاتك، لا ترغب مطلقاً في أن يطلع أحد على عالمك الخاص،

كقارىء مبتدىء للصحف كنت أقرأ العناوين الكبيرة، هي أخبارك أو بالأصح ما توافق أن يطلع عليه غـيرك، قـد تستطيع أن تفعل ذلك، ولكن ليس معي، أنا أعرفك كثيراً؛ أنا الظل لهذا الجسد، أنا الكلمة التي تغادر فمك.

***

أنت وهذه الأقنعة التي تملأ الغرفة، لم تجـد مـا يناسبك منها، مات العاشق الشاعر فيك عندما غادرت بنت الشامية الطائف لتندمج زرقة عينيها مع زرقة بحر جـدة مقترنة بابن العم الذي آثر أن يحتكر ذلك الجمال، وعندما وجدت تلك الشاعرة صدراً يحتوي كل الكلمات الوجدانية حيث قد أصابها الملل من تلك الوصايـة، ومـات فيـك الشاعر العاشق عندما وجدت أن ليس لديك القدرة علـى تأمل رمانة، فتحولت من نبتة خاصة إلى نوع من الفواكه، حتى ذلك الدكان الصغير في "باب الريع" بدا غريبا عليك؛ فإخوتك كانوا سنداً لوالدك الذي بحث عنك كثـيراً ولـم يجدك، أنت لست هنا وإن كان جسدك محاطاً بجدران هذه الغرفة، حتى مقعدك في الفصل لم يفتقـدك، حتـى تلـك الأوراق التي نثرتها في طريق الناس باثاً فيهـا همومهـم تقاذفتها الرياح. الطائف صدر دافىء احتضنك كثيراً، لـم

تشعر مطلقاً بالخوف مثلي عندما ضجت الإذاعات معلنة عن ذلك الانتصار الذي تحول إلى هزيمة في الخامس من حزيران، ربما كنت لا تملك قناع الإحساس بالهزيمة في ذلك الوقت، قلت نحن هنا في أمان، كنت تحلم بكتابة قصيدة، هل لاتزال تحلم حتى الآن، وهذه السنون التي أثقل بها جسدك، مازلت كما أنت، كالطائف، لا تتغير، رضيت بتلك الوظيفة لدى ذلك الرجل، وتركتني أرحل وحيداً عابراً أسوار الجامعة، رأيتك تبتسم، قلت لي "لستُ الوحيد الذي يقوم بتغيير الأقنعة، عدو الأمس أصبح صديق اليوم و"أمجاد يا عرب.." لم أدعك تكمل حديثك، سألتك ألم تجد المرأة التي ترافقك بقية عمرك؟، "مشهد قد يتكرر دائماً عندما لا يجد أحدهما الآخر" قلت ذلك وأكملت قهوتك.

★ ★ ★

عبدالحفيظ الشمري

- من مواليد ١٩٥٩ (السعودية). أصدر أربع مجموعات قصصية رحيل الكادحين (١٩٩٣)، أبي والقوافل.. عطش ورمل (١٩٩٤)، وتهرأت حبالها (١٩٩٧)، دفائن الأوهن تنمو (١٩٩٧).

وجوه الأحياء ظنون تحترق

(نوايا)

تبدأت لأهل (جرف الخفايا) نوايا السيل العنيفة، والغادرة.. فبلا وعد ألمّ بهم فيض مائه ودون سابق إنذار.- برعد أو برق -.. داهم الخلائق في غفلتهم.. الأحياء منهم والموتى، إذ زلزل أركان بيوتهم، وقوض نصائب قبورهم.

رأى الأحياء أشياء مروعة، وتدحرجت مع السيل عظام الموتى.. علا نواح النساء ضاجاً ومنتحباً كبحر.

لم تلق (نوايا السيل) بالاً لمن ينتحب في أعلى الجرف المنكوب، ولم تميز بين غصن بال وعظام ساملة.. إذ اقتلعت كل شيء.. كأن لم يكن أحد هنا..

(ذرفات الغبطة)

في منحدرنا المألوف منذ فجر الفاقة.. تتجمع العتمة في أصداف حياتنا، تلك التي اعتادت عشق الظلمات، والأحلام الغريبة.. كنا نغني حتى فاض الفراغ بأصواتنا الحزينة.

أضفت الوحدة على حياتنا في المنحدر حقاً دامساً يليق بنا.. لتصبح الأشياء حولنا على هيئة رجل يحني قامته ليطفىء ناراً، وخلفه طفل يرسم كاملاً أحلامه بعود ثقاب.

(تعبيرية)

شتمني مرة، بل مرتين، وبغلظة رفع سبابته بوجهي.. لم يكتف (أستاذ الفصل) بفعل ذلك إذ رفع فردة

حذائه وهوى بها على أذني.. شعرت على إثرها بلهيب يسري برأسي، وحرارة تغمر جسدي تبللت عيناي بالدموع. رأى مجاوري بالمقعد هالة داكنة تنمو على صدغي أنبأني بها هامساً.

فعل (المعلم) ذلك أمام (التلاميذ)، وفي (المدرسة) ليتطاير كل ما – حفظته بالأمس – في أرجاء الفصل.. إذ تبخرت بقايا سائل (الجبر) واهترأت رموز (الهندسة) في ذاكرتي.. فلم يعد هناك مثلثات مستقيمة الأضلاع أو دوائر متقنة الإستدارة.

أمر أذهلني.. وسررت به هو ما بقي عالقاً في الجانب الآخر من رأسي والذي لم تطله الصفعة من بقايا كلمات كنت أحفظها لمادة التعبير.

(إستسهاد)

لليلٍ ساهرٍ بسهد، إحمرت عيناه، ونغم الوحدة الخانقة، ينبعث من مخبئه، ذاك الذي يأويه مع عقده ووساوسه، تلك التي يعلقها في سقف عالمه الشاحب.

هرش رأسه بعنف وكتب لمن حوله بوهم وعلى

ضوء نار شكوكه: إني أكرهكم.. كانت أصوات الخـــارج تتعالى لحظة أن اشتعلت وساوسه، وضجت بهذا المقـــت الخابيء.

(ظنون تحترق)

ابتهجت وهي تخلــع آخــر شــكوكها وحذرهـــا، كمعطف ثقيل - ما إن علمت أنه أضاع تفاصيل وجهها.. إذ لم يُحيّها أو يحدثها وقت أن عبر بها.

خلَّفها وراءه. تأوه، وتجمل ببقايا صبر يستدر بـــه الهدوء.. فهي ورغم الابتعاد تخطو في أوردته - عابرة - بصخب.

(ترسَّب)

مزيج من جذل طاغ، وفرحة تتعلقني لحظـــة أن قتلت (الأفعى القصيرة) ورميت العصا آمناً؛ لكنني وبعـــد سحابات الفرحة المفرطة أدركت بـــأنني تخلصـــت مـــن شريرة المهد المميت ولم أتخلص من رعبي المترسِّب.

(وجوه)

من إحدى شرفات سماقة بيته رأى (وجوه) من شتمهم وأذلهم بالأمس.

ترك الوجوه إلى شرفة ثانية ليرى (هياكل) من أكل لحمهم؛ ومن الأخرى رأى (ملامح) الذين شيدوا هذا البناء بمالهم. كان همه أن يداوي الزمان كل شيء؛ لكنه وأمام كل شرفة يفتحها تطل وجوههم الفائضة بالنقمة.

جرّاء ذعره النامي تخلقت له وجوه لا تأبه بذلها المعتاد. رأى وهو يهبط شرفاته بقايا عظام أيديهم تحفر الأرض.. فيما بدأ لذهوله أنهم يعدون لموته قدراً من النقمة المتفشية.

★ ★ ★

عبدالرحمن الدرعان

- من مواليد ١٩٦٢ (السعودية). أصدر مجموعة نصوص الطين (١٩٨٩).

نون النسوة

تلك اللحظة حين تستحضرها الآن على نحو ما ترتديك الفجيعة التي جعلت تكبر كالشجرة مع الأيام قطعاً هي لم تلازمك. لكنك في المواقف المشابهة مثلاً تصحو على ارتطامك بالمشهد البعيد، تنتبه على آثار الرضوض فإذا أنها قد كبرت وغارت بعيداً بما لا يدع مجالاً للاندمال.

جراح كثيرة استطعت أن تتجاوزها بمرور الوقت، موت، وإهانات، وإخفاق، وحرمان كثير. وتعلمت بالوراثة

أن تصدق كل الشائعات التي كان أهل قريتك يروّجون لها مثل مبدأ "أن الصعوبات التي يعجز الإنسان عن الصعود لها، يتكفل بها الزمان". ويوم فرم "جنزير" الدراجة ساقك آنذاك، وأوقعتك مهرتك أرضاً كشهيد صغير. لم تسنّدك يومها غير تلك الكلمات التي رماها جدك القاعد في شمس الضحى يزدرد التمرات التي تعوّد أن يفتح بها قفل النهار.. إذ حصبك بالنواة وقال دون أن يحرك فيه خيط الدم المتجلط على ساقك أية عاطفة: "قم، تكبر وتنسى"، وعندما رآك تنهض أضاف على سبيل الملاطفة: "وتخطب لك العروس" وتناهت إلى سمعك جلجلة ضحكاته البطيئة وأنت تستأنف قيادة دراجتك، وتلوذ على أثر الخجل بالفرار. لم تكن بلغت مبالغ الراشدين. ثمة خجل لا يشوب حمرته الرعب من المرأة.

وحينما قال المدرس أنه يتعين عليكم أن تغضوا الطرف إذا ما صادفتكم الأنثى، ما كان يخطر في بالك أبداً الانصياع لهذا الأمر البالغ الغرابة، وإذا اختفت "فطوم" في ذلك اليوم الذي لا يمكن أن تنساه كمنعطف خطير في تاريخك الشخصي، فسرت الموضوع على أنها ربما كانت مريضة وهاجت بك الرغبة في زيارتها. لم يدر في خلدك

أنها سوف تختفي إلى الأبد إلا عندما انتهرتك أمك بكلمات يتقصد عنها العنف قائلة: إن البنت كبرت(!!)

هل تعمدت أن تمحو اسمها أيضاً؟!

في المساء وقف ذلك الفتى الذي كنتَهُ تحت شرفة بيتهم يتدلى من ذراعيه الشاخصتين باتجاهها كسراج مريض. ويقول لها بلهجة تحمل كل تحدي الأطفال:

هيا، انزلي، ويسحب ورقة اللعب من جيبه ويفردها على نحو بهلواني، كان القصد من ورائه الإثارة ليس إلا.

- دحيمّ هل صحيح أنني أصبحت امرأة، ويمكن أن ألد أطفالاً كالنساء؟!

ثم أجفلت حينما انتبهت لفظاعة السلوك الذي قامت به، وشرعت تتلفت متقمصة دور امرأة، واختفت إلى الأبد، تاركة سؤال الولد الذي طيره نحوها معلقاً: من قال لك هذا؟ من المجنون الذي أوهمك أنك ستلدين؟!

في الأيام التالية تتذكر أن نساء القرية كنّ قد خلعن عليها لقب "البنت المخبية" وكن يتحاشين المرور على اسمها الحقيقي دون بقية البنات عندما يميل بهن

الحديث عن حلاوة عينيها، وشعرها الذي صار من الطول بحيث يتوجب أن يفرش لها بساط من نوع خاص في أثناء التسريح.

تتذكر أيضاً أنك تسترق السمع لكي تتخيـــل هــذه الأسطورة، وتتمنى أن تراها هذه التي كانت ذات يوم فــي مثل سنك هل حقاً إنك أصبحت كبيراً، وهـــي، أيعقــل أن تكون كالعجائز؟!

★ ★ ★

ناصر الهلابي

- من مواليد ١٩٦٢ (قطر)، أصدر مجموعة دهاليز (١٩٩٧).

يسار.. يمين.. يسار

كنا نموت موت اليائسين... موت التافهين

وكنا نموت موت الغانيات...

موت المنحرفات...

أما اليوم فالموت مختلف

من الموت أدنو..

وإلى الموت أركب..

حينما الديار استنجدت، لاحت بآفاق العدو سرية

تبدو تارة، وتختفي عن الأنظار تارة أخرى، هم قليلون من بعد، كثيرون إن دنوا. كانت لهم في مسيرتهم مواقع راحاتٍ وسكن، وحيناً يتهيبون وتدب فيهم الحركة فقد وصلوا قريباً شرقي النهر الضيق الممتد طويلاً وكان عدوهم غريباً؛ لكنه كان مندفعاً سريع الخطى عندما كانوا يسيرون على صراط الحشر، فانزلقت إحدى قدميه، سقط....

انزلق ثانية.... فتوالت السقطات.... واستنتج من غير شك أنه سقط حتماً ونظر عالياً ليرى المسافة الهائلة التي قطعها والتي بالغت في ضخامتها تلك الأشعة البنفسجية الباهتة للشمس وقد أوشكت أن تغرق في البحر.

يسار... يمين... يسار

أخذ العساكر يجدفون سيقانهم بحركة متناسقة كأنهم مندفعون في يم سهلٍ هادىء عميق، وفوقهم يرفرف زوج من الحمام الأبيض وقد نشر جناحيه وبدت أرضية الميدان الفاتحة، وكأنها تمنحهم ابتسامة ترحيب أو سلام خُذ.

يسار... يمين... يسار

كانت هناك صورتان تتراءى له لحظتها، ساعتها،

وقتها وزمن انفراط السلاح، البارودة التي كان يحتضنها في يمينه ويضمها إلى صدره.

صورة واقعية يعيشها جسده المكتنز في زي ميداني عسكري مموهٍ، في دورة التخريج التي حضرها جمهور غفير من ضباط يحملون رتباً وشارات عسكرية وصورة أخرى هلامية يعيشها عقله الباطني وتمثلت فيه روحه التي كانت تحلق وتطير إلى آفاق بعيدة وإلى مواقع تستعر فيها النار الحمراء، هناك عند جنبات النهر في أخفض البقاع وفي أدنى الأرض.

يسار... يمين... يسار

الحياة في الكلية العسكرية موحشة إلى أبعد حد، خصوصاً في الأمكنة النائية، فالمرء غالباً لا يرى أهله وذويه خلال أشهر متواصلة. وعندما أعلن الضابط المسئول بدء العرض العسكري، قام الجنود جملة واحدة وهم منصتون لإيقاعات صوته المتقطعة، وانطلق مع حركتهم التي احتلت مواقع عديدة على أرضية الميدان وميض من الألوان مثل وميض جوهرة نادرة.

يسار... يمين... يسار

كان الجندي يمسك السلاح بذراعه مع أقرانه وهم

يستعرضون مهارتهم في قذف السلاح ونقله من يدٍ إلى يدٍ ومن ذراعٍ إلى ذراعٍ. كانت يداه طوعى سهلة في نقل السلاح لكنه كان هائماً بخياله بعيداً هناك عند أطراف النهر.

يسار... يمين... يسار

لم يتضعضع منكبه، ولم يستعص عليهم المركب حينما قطعوا الجسر الفاصل إلى ضفة النهر الأخرى، توالى الرصاص تجاههم وكانت الرياح الصفراء تنفث هواءً ساخناً مثل هواء الفرن، كما كان ميزان الحرارة يشير إلى ارتفاع الدرجة المئوية بنسب ملحوظة وكان فريق الله، يمر مر البرق بينما جيش العدو يتناثر ويكاد يختفي ويذهب، ولاذوا يتقهقرون... ينسحبون إلى الوراء وينسابون كما تنساب الثعالب...

يسار... يمين... يسار

لكن بارودته... التي كانت تنتقل من يدٍ إلى أخرى انفرط زمامها من يديه... انزلقت... سقطت.

وكانت تدور في الهواء هاوية إلى الأسفل...

يسار... يمين... يسار

لم يستشعر الجندي في بادىء الأمر، لكن حر

الوغى... نغمات الصوت المتقطعة أعادت الروح المحلقة إلى الجسد في واقعه على أرض الميدان، وفي الزمان والمكان الذي يقام فيه الاستعراض العسكري في دورة التخريج.

يسار... يمين... يسار

تلكأ الجندي في بادىء الأمر، وقع أسير حيرته، حملق بانشداه نحو ذلك الذي يكاد يستلقي والذي كان يسقط لحظة إثر لحظة في محيط بدا وكأنه ظلام هابط.

يسار... يمين... يسار

تحامل على نفسه حتى وقف جيداً على ساقيه وهو يحس بالأوجاع تنتشر في كل مفصل وطرف وانحدر إلى أسفل بخفة، ونزل حتى كاد أن يلامس سطح الأرض، وسرعان ما حرك يده اليمنى بسرعة خاطفة ووكز فوهة البارودة إلى الأعلى.!

★ ★ ★

لميــــاء باعشــن

- (السعودية)، ترجمت بعض قصصهـا، تعـد لإصـــدار مجموعتها الأولى.

طائر وحيد الجناح

ونهضت من جانبه هاربة ورحت أجري بكل مـــا أوتيت من سرعة، وأغمضت عيني وخطواتـــي تتلاحـــق مبتعدة عنه.. أجل هو: حلم حياتي.. الإنسان الوحيد الذي ظننته قريباً من نفسي يفهمها ويقدرها كـــأصل وجوهـــر. تركته خلفي ينادي: "مريم.. ما بك؟ مريم.."

وصممت أذني التي طالما اشتاقت سماع صوتـــه ينادي اسمي، وتمنيت لو أطير إلى غرفتي في لمح البصر فأغلق بابها دون العالم وأقبع في سجن لا يشاركني محنته أحد!

منذ دقائق قليلة مضت كنت أحلق في سماء السعادة غير مصدقة أن اللحظة التي كللت أحلامي قد حانت وأنه يجلس الآن قبالتي ويخبرني: "مريم.. إنني أجد في نفسي ميلاً شديداً إليك. فإذا لم يكن لديك مانع، فإنني أود أن أتقدم لطلب يدك من عمي؟"

ورددت هامسة حالمة وقلبي يكاد يطير إليه: "أنا؟"

قال بصدق: "ومن غيرك يا مريم؟ لا تقولي إنك لم تلحظي شيئاً من قبل. أنا وأنت متحابان منذ الصغر.. ولو أننا لم نبح بعواطفنا. فأين المفاجأة؟"

قلت وصوتي يخفت أكثر فأكثر: "لقد اعتقدت أنني توهمت تلك العواصف، خاصة بعد سفرك الطويل الذي أخذك بعيداً وملأ حياتك باختيارات عديدة. كنت أسأل نفسي دوماً عما ستجده عندي ليميزني عن غيري!"

وتبسم قائلاً: "أيتها الحمقاء! وأين سأجد امرأة في مثل جمالك؟ لقد سحرتني دائماً عيناك الزرقاوان وشعرك الحريري الأصفر وهذه البشرة البيضاء الصافية.."

ونزلت كلماته المؤلمة على أذني نزول الصاعقة.. وفجأة نبتت في مقعدي أشواك حادة فانتصبت واقفة وقد

تملكت مني خيبة الأمل. وارتفع بداخلي صوت يهدر: "من منا يريد حقاً؟ أنا أم (ميري)؟" ثم احتوتني دوامة الغضب تحملني بعيداً عنه وعن الحديقة وعن العالم بأكمله.

وهرعت من فوري إلى مدخل البيت الكبير وصوته البغيض يلاحقني: "مريم، انتظري قليلاً.. ما بك؟.." ولم أجد في نفسي أي رغبة في الرد عليه.

وقفزت أقدامي درجات السلم.. ذات السلم المؤدي إلى الباب الرئيسي.. ذات الباب. وقفزت إلى ذاكرتي طفلة في السابعة تتمسك بيد جدتها تصعد الدرجات ذاتها متثاقلة وتنتظر أن يفتح الباب الرئيسي وصدرها الصغير مليء بالدموع. وكانا في استقبالها: رجل وامرأة غريبان مدا أذرعهما لاستلامها:

- "ادخلي يا مريم.. هذه عائلتك منذ الآن وستعيشين معها في سعادة." وزحفت أقدامي إلى داخل البيت الكبير مكرهة.. أنظر إلى الخلف أراقب جسم جدتي الذي حجبه الضوء عند الباب يصغر شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً كما تلاشى جسم آخر في يوم استلام آخر.

"من منا يريد حقاً؟" يهدر الصوت بداخلي، "أنا أم

(ميري)؟" وسرت في الردهة الطويلة والدموع تملأ عيوني. ومن بين الغمائم الدمعية تراءت لي في غرفة المعيشة التي مررت بها على عجل أطياف لماض بعيد.. جلست حينها في وسط عائلتي أشارك أخوتي اللعب.. وخيل إليّ أنني أسمع صوت أختي إيمان تسأل أمي: "اشمعنى مريم شعرها ذهبي يا ماما؟"

ورفعت عيني أقرأ شفتيها بلهفة وهي تقول: " خلقة الله يا حبيبتي."

وعادت أنفاسي إلى وتيرتها الطبيعية، ولم أتوقع أن يرتفع صوت أخي أحمد معلقاً:

- "إن كانت مريم أختنا، فلابد أن ماما قد توحمت على دمتيك يا إيمان."

وأحسست بالاختناق مرة أخرى خاصة وأنها لم تعلق. والتصقت عيناي بشفتيها المغلقتين أنتظر منهما تفسيراً مقنعاً يشفي تساؤلاتنا جميعاً، ولما طال صمتها وخزتها إيمان سائلة:

- "صحيح يا ماما؟ أتوحمت على (باربي)؟"

وردت ماما بعصبية شديدة:

- "ما هذا السخف؟ قلت إنها خلقة ربي!"

وما كاد الهواء يصل إلى رئتي هذه المرة حتى قذف أحمد بالسؤال القاصف:

- "إذا لماذا تشبه مريم دمية إيمان (باربي) أكثر ما تشبه لنا؟"

نعم، لماذا ياترى؟ لم تجب ماما، بل وطردتنا من أمامها وهي غاضبة لسبب مجهول. وفي نفس اليوم اختفت (باربي) من بين اللعب إلى الأبد!

موقف يتكرر بكثرة.. تتكرر تفاصيله في الزيارات وفي المدارس. موقف مشحون بالألم والحرج والتمزق عاشته طفلة على أعتاب الصبا.. موقف ينتهي دائماً في جمود.. في صقيع.. والجواب المقنع ظل دائماً على الكتمان.. موضوع محرم لا يطرق أبداً أمامي. لماذا أنا مختلفة عن كل من حولي؟ لماذا لا أجد لي من بينهم شبيهاً سوى (باربي) الكريهة؟

- "قولي لي يا جدتي.. من أين جئتم بي؟" واجهتها يوماً وقد طفح بي الكيل.

ونظرت لي بتعجب مرعوب من فوق نظارتها التي إرتكزت على رأس أنفها، وقالت مرتبكة:

- "ما هذا الهراء يا مريم؟"

- "ولكنني سمعتها اليوم تتحدث في الهاتف وتقول بأنها تتألم كلما نظرت إليَّ لأنني أذكرها بالمرأة الأخرى".

- "وكيف عرفت أنها كانت تتحدث عنك أنت؟"

- "أرجوك يا جدتي، هذه ليست المرة الأولى."

وبالفعل لم تكن تلك أول مرة، فقد تجمعت لدي جزئيات لسر خطير يخصني لملمتها بالتلصص والتصنت وعن طريق الصدفة وزلات اللسان:

- "هل لي أم أخرى؟ أم غير أم إيمان وأحمد؟"

يومها لم تجد جدتي المسكينة بدأً من أن تهمس لي بالحقيقة كاملة.. حقيقة عنيفة مدمرة هزت كياني ووقع على عاتق جدتي المرتكبة تفسيرها لي وتحمل ثورتي وغضبي لإخفائها عني. وبدأت أصرخ وأجهش بالبكاء فضمتني إلى صدرها في محاولة يائسة لتخفيف وقع هذا الاكتشاف على رأسي الصغير. ومن يومها تزحزحت إلى الظل، وحملت إستغاثة قلبي الذي كان يتمزق من قسوة الألم إلى عالمي الخاص الكئيب الحزين.. عالمي الذي لم يستطع أحد التسرب إليه سوى ابن عمي: أحسست بعينيه

تسبران أغوار نفسي المعذبة.. أحسست بأنه الوحيد الذي يملك القدرة على سماع صرخاتي المكبوتة.. إلى هذا الحد أخطأت تقديراتي؟ أبعد كل هذا الإنتظار يختار (ميري) ويرفضني؟

ولمحت إيمان في طريقي ملتصقة كعادتها بالهاتف إلى حد أنها لم تلحظ مروري من أمامها.. الهاتف.. لكم راودتني نفسي..: "آلو.. سياتيل، واشنطن! أريد التحدث مع..."

من هي؟ أنا لا أعرف لها اسماً ولا عنواناً.

- "جدتي،" سألتها والقلق يلتهمني،" هل أستطيع الإتصال بها على الهاتف؟"

- "لا!" ردت قاطعة وهي تضرب العجين في بطن الصينية وكأنها تلطمني به على وجهي.

- "وهل من الممكن أن أكتب لها رسالة؟" وعدت أقول مستجدية.

- "لا!" ردت ضاربة العجين بصرامة وقد ضاقت ذرعاً بإلحاحي، "ستجعلينني أندم على مصارحتك بالحقيقة يا مريم. لقد وعدتني يومها بألا نعاود الحديث في هذا الموضوع أبداً."

وشعرت باليتم يحتويني بقسوة. كانت أوامر أبي مشددة بعدم السماح لي بالإتصال بوالدتي وكذلك مراقبة الرسائل. وهكذا نشأت لا أعرف عن أمي شيئاً، بل كنت لفترة أعتقد أن جدتي هي أمي لأنها تولت العناية بي بعد إستلامها لي إثر زيارتنا للطبيب: "إن هذه التأتأة رد فعل طبيعي لحرمانها المبكر من حنان الأم". وغمرتني جدتي بعدها بالحنان المطلوب لاستقامة نطقي، ولكن حين بلغت السابعة سمعتها تقول: "بعيد عن العين بعيد عن القلب. سينساها والدها إن هي بقيت عندي. هي فرد من عائلته ويجب أن تكبر في كنفه."

ولم يحاول أحد أن يشير من بعيد أو قريب إلى والدتي. راحوا ينفذون أوامر والدي دون جدل أو مناقشة. وظل الأمر كذلك حتى بدأت أعرف لأول مرة حكاية أمي (الخواجاية). ورحت أتظاهر أمام الجميع أنني لا أدرك معنى أن يكون لي أم لا أعرف من أمرها شيئاً، في حين تجندت آلاف الرغبات في داخلي للبحث عنها. لم أعرف أمي التي تركتني وأنا في الرابعة وبالتالي لم أحتفظ لها بأي ذكرى مستقرة ومتكاملة.. ولكن يبدو أن للعقل الباطن قدرات تفوق ما يتمتع به العقل الواعي حيث جسد في

أعماقه عقب اعتراف جدتي خيالاً لسيدة شقراء ذات قلب عامر بالحب والحنان. ارتديت أمامهم قناع اللامبالاة، ولكنني قبل أن أخلد للنوم كل ليلة كانت تنطلق الآهات المكنونة في صدري تدفعني لكي أعتصر ذاكرتي وأستدعي من غياهبها أدق التفاصيل عن تلك السيدة. وخفت إن لم أستحضر صورتها ليلياً فربما تمحوها من ذاكرتي أصابع الزمن ولا تعود تطل عليّ بوجهها الجميل المستدير وعينيها الزرقاوين الصافيتين وشعرها الأصفر اللامع المفروق من الجانب الأيمن: ذكرى امرأة منحتني الحياة.. ثم مضت ولن تعود! أستحضرها ليلاً لنتهامس بعيداً عن أعين الحراس...

وصعدت الدرج العلوي متعبة وقد تقطعت أنفاسي من الجري والبكاء معاً. آلاف الأسئلة تطرق رأسي ولا تجد الإجابة. كلما خلوت إلى نفسي – وأنا كثيراً ما أخلو إلى نفسي بعيداً عن فضول الغرباء – تستفرد بي تلك الأسئلة من أنا؟ قدم هنا وقدم تجهل هناك! أمي أنا، ما هي ياترى؟ أي صنف من النساء هي؟ هل أحبت أبي حقاً؟ وهل أحبتني أنا؟ كيف انتزعت من أحضانها؟ أم هل تخلت هي عني؟ كيف نسيها أبي وأنسانيها؟ لماذا كرهها هكذا وألغى وجودها من حياتنا هو وأنا؟

وكان إحساسي باليتم والغربة يزداد ويتضخم كلما تبادر إلى ذهني سؤال آخر عن مأساتي الغامضة. كيف قدمت إلى هذه الحياة؟ هي وحدها من يمسك بطرف الحبل الذي عجزت أنا عن قطعه والبدء من جديد. كيف تبدأ حياتي وقد سلبت مني بداياتي؟ كيف أعيش الحاضر وأتطلع إلى المستقبل إذا لم يكن للماضي أي أثر عندي؟ أصارع ذكرياتي كل ليلة كي أسترجع ملامح المرأة المجهولة التي كانت تدعوني (ميري)... أستعذب الذكريات التي تخنقني، ولكن لا خيار لي. فلكي أودع أمسي كان علي أن أجده أولاً.. أمسي المفقود!!

★ ★ ★

محمد الغربي عمران

- من مواليد ١٩٦٠ (اليمن)، أصدر مجموعتين قصصيتين: الشراشف (١٩٩٥)، المرأة أعزكم الله (١٩٩٨).

الظل العاري

انتصب "علوان" بقامته المديدة، وملابسه الداكنة، تحت غبار شمس الظهيرة يستعرض عناوين الصحف الممددة أرضاً أمام كشك التحرير، الذي تجمع حول "علوان" كثيرون على شكل هلال مزدحم.

الجميع يتفرسون بملامح ممجوجة.. يبحثون عن آخر الأخبار الاقتصادية، وأخبار الإرهاب ثم يلتقط كل منهم صحيفة وينصرف.. أحدهم التقط عشر صحف مختلفة وعدة مجلات ولم يكتف، حتى ظن "علوان" أنه

سيحمل كل ما في الكشك، تأمل "علوان" ملامح صاحب الكشك وابتسم جازماً.. أنه لا يجيد القراءة..!!

الكل يأتي ليلتقط حاجته وينصرف، إلا "علوان" يتحسس جيوبه، يبتسم في وجهه صاحب الكشك الذي يراقب كل شيء بعيون قط متمرس... استغل علوان فرصة انتقال صاحب الكشك والتقط إحدى الصحف يقلبها باحثاً عن صور.. وعن صفحة "......" هدأ! دفن وجهه للحظات، أيقظه صوت صاحب الكشك، أدرك علوان أنه فشل في خلق علاقة معه رغم محاولاته المتكررة، توصل إليه بنظرات مسطحة وعند رفضه.. رد عليه مدخلاً يده في جيبه.

– اليوم سأشتري... كررها دون أن يرفع رأسه، أو يخرج يده من جيبه، ارتفع صوت من داخل الكشك يتوعد ثم انتزعت الصحيفة من بين يديه.

لم ينتظر تعليقات أحد فهو يعرفها مسبقاً، سقطت من ملامحه ابتسامة ومضى يبحث عن كشك آخر يكمل قراءة صفحته، يبحث عن ظل فقد أعيته شمس صنعاء.

مر بجوار "مارد الثورة" أعجبه الظل المجاور تمدد، أحس ببرودة الأحجار تحت كتفيه.. شعر بلذة، لم

يهدأ.. نهره جندي الحراسة، زاد في الذوبان.. نهض بعد عدة ركلات، يجوب الشوارع متسائلاً عن سر ثبات الشمس فوق رأسه دون بقية الناس! ولم ينتظر الجواب.. أخذ يجوب الشوارع.

لاحظ وجود ظل كبير عند بوابة المتحف الحربي، حاول التسلل إلى أطراف الظل.. جلس، مد له جندي البوابة بريال! أخذه ووضعه على الحجر المجاور، نهض مبتسماً يسير دون هدى، كان يريد معرفة الوقت! سأل أحدهم:

- هيه! كم الساعة! لم يرد عليه، سأل آخر كم الوقت؟ نظر إليه دون أن يتفوه بكلمة! تأمل الساعة المشنوقة على الجدران العالية هناك على يسار المواصلات، تمنى لو يعرف من شنقها هكذا منذ سنين دون حراك، حدث نفسه:

- قد يكون قرار شنقها صادراً من وزير المواصلات وعليَّ أن أساعده،... تذكر موضوعاً قرأه منذ سنوات في مجلة تهتم بالعلوم الرومانية، عن تحريك الأشياء عن بعد، سأل نفسه لماذا لا أجرب.. ركز تفكيره حول معرفة عطلها مصوباً نظره إليها، نسي كل ما حوله

لم يعد يسمع أي صوت.. وقف وسط الشارع وقد ركز نظره إليها ثم جلس على الأرض، آخذاً وضع جلسة الأرنب، ترك يديه لعبث الهواء وهو يحاول إصلاح الساعة عن بُعد،

بدأت أمعاء الساعة تظهر له بعد أن تفسخ رداؤها الخارجي، تهللت ملامحه بابتسامة عريضة.. ومالبثت أن خرجت من جوف الساعة زوبعة من الغبار!، بدأ وجهه يتفصد عرقاً وهو يذيب الصدأة المتراكم على تروس الساعة، مرت لحظات ووضعه لم يتغير، بدأ يحرك الأجزاء الداخلية للساعة، تحرك الترس الأول ليحرك بدوره الترس الآخر، أصغى السمع.. ارتفع صوت الساعة.. تك.. تك.. تك.. تك، شعر "علوان" بآلام في جسده مع ازدياد صوت حركة تروس الساعة، ركز أكثر.. تك.. تك.. تك، دوت بداخله صرخة قوية، لقد بدأت الساعة تعمل، تلفت.. ليجد الشارع يغص من حوله بالناس! الكل ينظر إليه في بلاهة! وثلاثة من الجنود يركلونه بشدة!! ثم يسحبونه نحو الرصيف المقابل، صرخ أحدهم في وجهه لقد عطلت حركة المرور! وإن عدت لهذا الفعل فستندم.

كان علوان مندهشاً من نظرة الناس إليه... ومن تصرف الجنود معه!، توقع أن يحملوه فرحين على الأكتاف، وأن يساعدوه على إكمال إصلاح الساعة... ساعة ميدان التحرير، انسحب وقد رسم على ملامحه الشاحبة ابتسامة، متجهاً نحو "شارع القصر" يبحث عن ظل، شعر تحت قديمه بلزوجة الأرض السوداء، غاصت أقدامه.. تعثر عدة مرات بمخلوقات تلحس وجهه... أفزعه شكلها... فوجيء بانتشار هذه المخلوقات في كل ركن من أركان الأزقة المجاورة! يرقات ضخمة تزحف على الأرض تلتهم كل شيء، الملابس.. الأحذية.. الأرغفة، كل شيء حتى الأحلام.. الكرامة، كانت بعضها تزحف فوق جلده، تلعق أعضاءه، تجويف عينيه، صرخ يستغيث، فهو لا يملك شيئاً غير الخرق التي تغطي جسده، يزحف وهي تلعق.. "صرف.. صرف... دولار..! استرليني.. صرف".

أخذ يزحف وهي عالقة به حتى وصل إلى أطراف الرصيف الآخر، وعندها تركته سعيداً فرحاً بالنجاة، يتأمل جسده، يتفقد أعضاءه، ويجوب الشوارع

عار بحرية.. يبحث عن ظل بعد أن حررتـــه اليرقـــات الضخمة من ورقة التوت..!

(١) مارد الثورة: الدبابة التي أطلق مدفعها أول طلقة بعد إعلان ثورة سبتمبر اليمنيـــة عام ١٩٦٢م وهي تنتصب رمزاً وسط ميدان التحرير - صنعاء.

★ ★ ★

عمرو العامري

- (السعودية) من مواليد ١٩٥٨، أصدر مجموعة طائر الليل (١٩٨٩).

القمري

وظلت القمري على المدى قفر من الأساطير والتميز وبلا خوارق، ولم يكن ليشد الرحال إليها أحد لطلب معونة من أي نوع.. فقط كانت ملتقى طرق ومعبراً للغادين والرائحين يتوقفون فيها، يشربون عذب مائها.. يتنفسون طيب هوائها ويتساءلون: (أين تقع قرية رديس)...؟ حينها نعرف انهم يقصدون ضاربة الودع وأنهم يبحثون عن شيءٍ ضائعٍ تائه عنهم أو فقدوا الاهتداء إليه ونؤشر لهم (مع قليل من الوصف) باتجاه الجنوب

ولكن القمري كانت ومازالت تتميز بشيئين اثنين (جمال البنات وكثرة المجانين).

بعد أن كبرت وتوطدت بيني وبين جدي المسافر عرى الألفة والود كان يسألني.. كيف هي مليحة يا ولدي...؟. مليحة يا جدي والله، ولكن لِمَ تسأل.. وهل تعرفها؟

- كان الناس يا ولدي يفلتون الدلاء من أياديهم عندما ترد أمها إلى البئر.. كانت فلقة قمر.. ولكن قل لي يا ولدي كيف هي أيضاً غاوية..؟ أوه يا جدي خليط من سمن وعسل وحدائق فرح متنقل...

- أحسنت الوصف يا ولدي إني أرى فيك شبابي الذي لم أره في أبيك (يسلم لي رأسك)... لو رأيت أمها في معية الصبا لعرفت لماذا ينبت الحناء والبعيثران وشجر الصيمران.. ولعرفت أن الجمال يخلق ليرى ويتجمد ولا قبح إلا قبح النوايا.

- هذا عن الجميلات يا جدي ولكن لماذا الجنون هنا فقط.. لماذا هي القمري مترعة بالمجانين...؟

- كانت القمري الوحيدة في القرى التي لا تعرف

البعوض من بين كل القرى.. لذا كـــان النـــاس ينـــامون مباشرة تحت ضوء القمر ودون غطاء وفي الصباحِ يكون هناك أحياناً من فقد عقله. هناك من يظن أنـــه التعــرض لأشعة القمر دون غطاء.. آخرون يقولون إنه الماء.. ماء القمري يا بني لا شبيه له.. فالقمري تقع بين أودية ثلاثـــة ولكل واد ماؤه وتميزه ومن يشربه مراراً على الريق يغدو شاعراً أو حالماً أو تصيبه لوثة الجنون.. آخرون قالوا إنها دعوة ولي صالح عبر ذات يوم ورفض جاهل أن يســـقي دابته فمضى ودعى وكانت ساعة اســـتجابة. ربمـــا الآن القمري محاطة بالمقابر من كل مكان وربما هو كل ذلـــك أو شيء من ذلك.. من يدري يا ولدي.. من يدري..؟ على أني أتذكر أنه قدم إلينا فقيه ذات يوم وقلنا له إن الجنـــون يجتاح القرية وأن الناس يفقدون عقولهم بالبســـاطة التـــي يموتون فيها... لم يعلق، أمضى ليالي ثلاثاً يتجول صامتاً حتى ظننا أنه هو جن أيضاً فقد تجول في القريـــة طـــاف المزارع المجاورة وزار المقابر الثلاث المحيطة بالقمري ونصب بيرقاً يدله على اتجاه الريح وفي اليوم الرابع قال: لا تشربوا من بئر الخالدية.. وأفضل أن لا تشرب منهـــا البهائم أيضاً... واختفى تلك الليلة قبل أن يقدم أي تفاصيل.

وفي صبيحة ذلك اليوم تحولنا إلى آبار أخرى... فقط موسى الشاجري رفض ذلك التحذير وشرب منها رغم تحذير الكثيرين له من عقوق أولياء الله.. ويقولون إن حنيناً غامضاً إلى شيء غير منظور تملكه بعد حين.. وظل يهجس في الطرقات بأسماء غامضة وكان يقول أيضاً إن مال الأوقاف مسموم كأموال اليتامى... أين أوقاف بئر الخالدية..؟ وينفخ في مزماره ويخلط بين العقل والجنون.. يذكر ناساً بأسمائهم.. ويتساءل أين أوقاف الخالدية؟ وأطلقنا عليه ونحن صغاراً موسى الهبل حتى وجد ميتاً ذات صباح. مات دون أن يعرف أحدٌ أو يتساءل كيف مات! مات وهو ينفخ هواء الروح ويفتش عن حقيقة.. ويقال أيضاً أن سرباً من العصافير هبط ذات عشية وشرب من حوض اللسانية التي أقيمت عليها بعد أن تحول عنها الناس وبعد أن طار، ظل يغرد بلا انقطاع وأشعل غابات السدر والآراك القريبة، غناء لأيام وليالٍ حتى أزهر الشجر في غير موعد، وتساقطت تلك العصافير موتى وبقيت أياماً دون أن يداخلها العفن، لأنها كانت قد تطهرت بماء العشق قبل أن تموت. واجتنب الناس تلك البئر غير الغرباء وعابري السبيل والذين ما إن

وفي صبيحة ذلك اليوم تحولنا إلى آبار أخرى... فقط موسى الشاجري رفض ذلك التحذير وشرب منها رغم تحذير الكثيرين له من عقوق أولياء الله.. ويقولون إن حنيناً غامضاً إلى شيء غير منظور تملكه بعد حين.. وظل يهجس في الطرقات بأسماء غامضة وكان يقول أيضاً إن مال الأوقاف مسموم كأموال اليتامى... أين أوقاف بئر الخالدية..؟ وينفخ في مزماره ويخلط بين العقل والجنون.. يذكر ناساً بأسمائهم.. ويتساءل أين أوقاف الخالدية؟ وأطلقنا عليه ونحن صغاراً موسى الهبل حتى وجد ميتاً ذات صباح. مات دون أن يعرف أحدٌ أو يتساءل كيف مات! مات وهو ينفخ هواء الروح ويفتش عن حقيقة.. ويقال أيضاً أن سرباً من العصافير هبط ذات عشية وشرب من حوض اللسانية التي أقيمت عليها بعد أن تحول عنها الناس وبعد أن طار، ظل يغرد بلا انقطاع وأشعل غابات السدر والآراك القريبة، غناء لأيام وليالٍ حتى أزهر الشجر في غير موعد، وتساقطت تلك العصافير موتى وبقيت أياماً دون أن يداخلها العفن، لأنها كانت قد تطهرت بماء العشق قبل أن تموت. واجتنب الناس تلك البئر غير الغرباء وعابري السبيل والذين ما إن

يشرب الواحد منهم ويمضي حتى يرفع عقيرته بالغناء أو النشيد ولا يلتفت لكنه بعد دهر يعود.

***

ولى زمن الكرامات وتساوت القرى في المضمون والجوهر وفقدت التميز وتوحدت في القبح والبلادة غير أن القمري بقي متفرد بالبنات الجميلات والمجانين.

وعندما تزورها الآن لن ترى البنـــات الجميـــلات لأسباب لست تجهلها غير أنك سترى المجانين فـــي كـــل درب مجانين لا يعتدون على أحدٍ ولا يخيفـــون أحـــداً... نعرفهم، نحن ندعو لهم فقـــط، وعلـــى ألســـنتهم نعـــرف الحكايات وننشر الأسرار.. وسترى منهـــم مـــن ينكـــش الأرض بسبابته لساعات طوال دون أن يرفـــع رأســـه.. سترى من يتخاطب مع الريح أو شيئاً غير مرئي وســـتجد من يتوسط بك لتبلغ رسالته إلى جهة عصية على الوصول وحتماً ستجد من يكتب شعراً أو من يغني قصيد.

* * *

نـــدى الطاسـان

- من مواليد السعودية.
تعد لإصدار مجموعتها الأولى.

نبض.. وارتجاف

صويلح.. صلوحي.. أو صالح الكلب كما يناديه أبوه في لحظات غضبه الكثيرة، يكره دائماً العودة إلى المنزل.. ويحب أن يتلكأ في الطريق رغم حقيبة كتبه الثقيلة التي تكاد تفوقه وزناً.. والحر الشديد الذي يشوي الطرقات.. وعقلية طفل السابعة الذي يجب أن يكره المدرسة ويحب البيت، لكن صويلح يختلف عن باقي الأطفال..

فهو يؤجل عودته إلى البيت قدر استطاعته.. لأنه

يريد أن يتجنب يد أبيه التي لا تفرق بين وجهه وقدميــــه.. وصراخ أمه الذي يصب دائماً في أذنيه اللتيــن يشــبههما أصدقاؤه بأذني الفيل.

اليوم وعلي غير العادة... ركض صلوحي مسرعاً إلى المنزل.. لم يتوقف ليشد ذيل القطة السوداء التي فقئت عينها اليسرى... ولم يرم بالأحجار علــى نــافذة مــنزل نوير... ولم يتلكأ ليلعب مع أولاد الحارة بالكرة... وتجاوز عم إبراهيم بائع البليلــة والبسبوســة دون أن يسـيل لــه لعاب... ولم يلوح بالشنطة يميناً ويساراً في زهق وملل... وتجاهل كلياً صراخ زميله يوسف وهو يناديه متسائلاً:

* صويلح... إلى أين أنت ذاهب؟.

صلوحي قاهر الوحوش كما يحب أن يسمي نفسه في لحظات لعبه الحالمة الكثيرة؛ كان يخفي شيئاً في يــده البريئة يحيطه بسياج من أصابعه الصغيرة يمسكه بحرص شديد حتى لا يطلب منه يوسف إعادته... يوســف هــذا الشقي الذي جاءه في الفسحة يحمل كنزاً وهو يقــول لــه بهمس:

* انظر.. وجدت هــذا الزمــبرك ملقــى علــى الأرض... بجانب دكان عم مسعود..

رد عليه بإهمال ولامبالاة مفتعلة، بالرغم من أنه كان يقاوم رغبته العنيفة في انتزاعها والهرب بها:

* وماذا تعمل بهذه الحديدة؟

مدرس الفصل... الذي يزعجه دائماً عندما يتهجى الحروف ويطلب منه أن يعيد نطق حرف الراء... فاجأهما في ركنهما البعيد... وهو يقول بلهجته الغريبة التي تشبه لهجة مذيع التلفزيون:

* إنها ليست بحديدة... واسمها ليس بزمبرك... بل نطلق عليها في اللغة العربية اسم نابض... هل فهمت ياصالح؟... ردد ورائي أنت ويوسف اسمها نابض... نابض.

هو في قرارة نفسه وبسذاجة طفل السابعة يكره يوسف عندما يأتي دائماً بكل جديد؛ لكنه يحبه لأنه يعطيه هذه الأشياء أحياناً ويسمح له باللعب بها.. كما فعل اليوم عندما أسقط النابض في جيبه وهو يقول له:

* لاتنس أن تعطيني إياه... آخر النهار.

صالح ابتسم بخبث ولم يرد عليه... ولم ينتبه لشرح المدرس في حصة الحساب ولا القراءة... ولم

يحرص على التنطيط مع الطلاب في حصة الألعـــاب... وكان أول الخارجين مـــن الفصـــل عندمـــا دق جـــرس الإنصراف... فهو يحمل كنزاً.. كنزاً غريباً.. ثميناً. حتى عندما دخل إلى المنزل لم يبتعد عن نقط الماء المتســاقطة ليلاً نهاراً من ماسورة الحمام... وحرص على أن يكـــون صامتاً وهادئاً قدر استطاعته... وأن يلتصق بعمه الـــــذي يزورهم بين حين وآخر أثناء تناولهم لطعام الغذاء... وإن كان موقعه هذا جعل بقايا الطعام غير المهضومة تتنـــاثر على وجهه المتقزز كلما اندمج أبوه في الحديث عن أخبار الأسهم.. والكرة... والمسلسلة التلفزيونية.

تعرف.. يا أخي مشاهدة المبـــاراة فـــي الملعـــب جميلة... لكن الواحد في البيت يجلس مرتاحاً بجانب كأس الشاي.. ودلة القهوة وطلباته مجابة...

وقبل أن يرد أخوه هذا يصرخ في أذن الصغـــير قائلاً:

صالح يا كلب... هات قارورة ماء بدلاً من هـــذه التي تفوق الشاي المغلي في سخونتها.. ويكمل بنفس النبرة العالية:

* يا أخي... هؤلاء النساء لا يعرفن سوى مهنـــة واحدة... ولا يستطعن حتى إتقانها.

صالح ينتفض كلما أمره أبوه أمراً... وهو يعرف أن أمه في الداخل ترتجف أيضاً من الخوف والمرض... فهي دائماً متعبة، وهكذا يبدو حالها اليوم فصوتها انطلق خافتاً وهي تناوله القارورة قائلة:

صلوحي يحب اللعب وحيداً في حديقة المنزل... وإن كان أبوه وعمه احتلاها اليوم... لكن لا يهم سيجلس في الطرف بعيداً ويكتشف هذه الحديدة... فقد انتظر كثيراً وصبر كثيراً وأطاع أباه طوال اليوم وحرص على إخفائها في جيبه حتى لا يأخذها منه في لحظة عضب ويرميها... كما رمى كرته المطاطية وطائرته الورقية... وسيارة السباق التي أهدته إياها خالته... لكن هذا الزمبرك صغير.. صغير جدا... ويوسف يقول إنه لعبة سحرية... وهو لا يرى فيه أي شيء غريب... ترى هل هو مثل مصباح علاء الدين! لابد من المسح عليه حتى يظهر مابداخله؟... لم لا يضغط عليه ضغطة خفيفة؟...

* آه إنه يهتز...

رمى بالزمبرك المرتج على الأرض عندما سمع صوت أبيه الغاضب وهو يناديه قائلاً:

* يا ولد... استعجلهم حتى يحضروا الشاي.

كان لابد أن يطالع وجه أمه المتعب وهي تضع الإبريق على النار، ويصرخ لإحضار النعناع من الحديقة بدلاً من أن تتسلل هي لتأتي به... ويساعدها قليلاً وهو يتمنى أن يكف أبوه عن طلباته... حتى يريحها ويريحه..

* عد إلى لعبك يابني... سأناديك عندما أجهزه.

جميل... هذا الزمبرك يقفز وربما يصل إلى السماء ويصل إلى النجوم. ضغط عليه بإصبعه بقوة... ليطير وينقر طرف أنفه.. وقبل أن يمسكه مرة أخرى انطلقت كلمات أبيه الثائرة:

* أين الشاي؟.... ماذا تفعل هذه المرأة في الداخل؟.. اذهب واستعجلها... أنت ما هذه العيشة!؟

عاد يحمل صينية الشاي بحذر... وكأنه يحمل شيئاً ثميناً. يجب أن يحافظ عليه.. يحسه.. يفتديه بحياته.. وصورة أمه وهي تميل على الحائط والباب.. ودواليب المطبخ.. بحثا عن لحظة سكون... تحتل ذهنها المشوش. أخيراً سيعود لاكتشاف هذه الحديدة اللعينة... سيضغط عليها بقوة أكثر...

* عيني.. آه.. عيني.

لم لم يبعدها عن وجهه قبل أن يفكر بالضغط عليها، حتى لا تضرب عينه؟. هو يكره أن يتألم ويكره أن يأتيه الألم من هذه الحديدة التي تسمى زمبرك... سيضغط عليها بكل قوته حتى تكف عن ضربه في وجهه...

* آه.. آه..

سينتقم منها سيحطمها.. سيمنعها من الطيران والقفز. قطعت صرخات أبيه القاسية خطته الطفولية:

* صالح.. يا كلب.. دع عنك اللعب.. واطلب من أمك أن تبعث بتمر وقهوة بدلاً من جلوسها هكذا...

عاد إلى مكانه المنزوي يجرجر قدميه الغاضبتين... بملل وهو يتحسر على أمه المسكينة التي عصبت رأسها وقامت من نومها ببطء وتعب كثير كثير.. تتعلق بحبات الهواء الساخنة... وتعانق خيالات ألمها. وككل الأطفال الذين لا يتجاوز انشغالهم واهتمامهم اللحظات القليلة؛ سرعان ما نسي خوفه على أمه وتلهى باللعب مرة أخرى.. والتفكير بالانتقام... سيضغط على هذا النابض بالحجر بكل قوته لعله يتوقف عن ضربه في وجهه، يبدو أنه عنيد.. عنيد جداً... فهو مايزال يرتفع

وينخفض ليصيبه في جبهته.. ورقبته وحاجبه.. ويلتف حول شعره المجعد، هو يكره التعامل مع أشياء لا يفهمها... أشياء تحيطه بالغضب أحياناً وتؤلمه أحياناً أخرى، سيصيب هذه الحديدة بالشلل؛ سيقضي على تعرجاتها وانحناءاتها، وكي يحقق ذلك شدها بعنف لتصفعه على خده الذي احمر من الألم وربما الخجل الممزوج بكثير من الغضب الذي طغى عليه لدرجة أنه لم ينتبه لأبيه وهو يسكب فنجانه على الأرض ويرمي بـ"الدلة" ويفرغ محتوياتها متقيئاً بكلماته مزلزلاً كل ما حوله:

* لماذا لا يوجد زعفران في القهوة... ألم أؤكد لهذه المرأة أنني لا أحب القهوة بدونه.. لا أستسيغها؟.. أف...

هذا الشيء الذي لا يتوقف عن النبض أصابه بالحيرة... ترى هل يكون جنياً من الذين تحكي له أمه عنهم بين لحظة وأخرى؟ وهل يخطط لخطفه وإخفائه تحت البحر؟ سيقرأ عليه سورة الصمد والناس اللذين حفظهما في حصة القرآن... حتى يتوقف عن ضربه كلما ضغط عليه... هكذا قالت له أمه في ليلة مظلمة خنقه فيها الخوف:

* لا يبعد الجن إلا القرآن... دائماً اقرأ القرآن.

مادام الزمبرك مصراً على قضم جلده فمن المؤكد أنه ليس بجني.. ولم يأت من تحت الأرض، ومهما ضغط عليه يطير.. ويطير.. دون كلل أو ملـــل. كلمـــات أبيـــه المتخبطة تحولت إلى رشاشات تصيب أمه وكـــل بنـــات حواء بالسباب والشتائم... وصوته تحول من الصراخ إلى الزعيق المتواصل... ورغم أن أباه كسر جميع الفنـــاجين وقذف بصحن التمر الذي التصق بالحائط خائفاً مذعـــوراً منتفضاً.. إلا أن صالحاً كان منشغلاً لدرجة أنه لم يهـــرب إلى الشارع كعادته حتى لا يصيبه من الضرب جـــانب... وكل ما يريده هو أن يقضي على هذه الحديـــدة... يكتـــم أنفاسها، لابد أن يدوسها بقدميه... هذا هو الحل الوحيد... لم يبق أمامه سواه:

* **آه.. قدمي.**

تكوَّر على الأرض وهو يمسك بأصابع رجله التي تئن دامية، كم يكره لون الدم.. هذا ما يجعـــل أصدقـــاءه وبالأخص يوسف يضحكون منه ويستهزئون بـــه.. هـــذه الحديدة اللعينة لابد أن يقتلها يشوهها... يمحي وجودها.

أبوه نسي ثورته وغضبه على تلك المرأة المسكينة... لينظر إليه ضاحكاً وهو يقول:

* يا غبي.. لا تبك مثل النساء الضعيفات... سيظل هذا الزمبرك يعض وجهك ويلتهم جسدك.

كان لابد أن يلعق دموعه بطرف لسانه... وينسى أصابع قدمه الحمراء.. ويقوم وهو يكتم شهقاته ليدفن هذه الحديدة المجنونة بانهزام.. وكلمات أبيه الضاحكة الموجهة تداعب أذنيه:

* تعرف يا أبا حمد... هذا الزمبرك مثل المرأة مهما ضغطت عليه سينفجر في وجهك... لا حل أمامك سوى دفنه ودفنهن تحت الأرض.

★ ★ ★

عبدالله بن ساعد المالكي

- من مواليد ١٩٥٤ (السعودية). يعد لاصدار مجموعته الأولى.

رائحة الجلد

تقاطر أولئك الناس إلى بيتنا منذ الصباح الباكر. وتتالى قرع عصيهم لباب منزلنا واحداً تلو الآخر. مستأنسين للدخول. لم تغادر أمي المنزل ذلك اليوم ولاحظت بأنها اهتمت كثيراً بنظافته، فنقلت قربة الماء للداخل وجففت مكانها؛ ثم ألقت عليه بعض التراب الجاف؛ أحضرته بيديها من السطح المجاورز

نفضت الشملة المصنوعة من صوف الغنم أكثر من مرة. وأخرجت الدجاجة وصغارها إلى خارج المنزل،

ووجهت أصبعها السَّبابة نحوي، وفي لهجة صارمة قالت: لا تدعها تدخل إلا بعد المغرب، سمعت.!

ولم تنتظر جوابي، بل شرعت في عمل بعض الترتيبات الأخرى. كنت أتبعها.. من مكان لمكان داخل المنزل وخارجه. حاولت جاهداً أتبين ما أعتقدته دموعاً تسابق يديها على خدها، كانت يدها أسرع من لمح بصري إلى مسح الدمعة، ولكني بغريزة الطفل أحسست أنها تبكي، قاومت فرحاً في داخلي بحضور الضيوف وما يصحب عادة ذلك الحضور في مسرات أو طقوس جميلة وحاولت أن أربط بين دموع أمي وأولئك الغرباء الذين توافدوا مع طلوع الشمس؛ وكان أبي قد جلس مبكراً في (الصفة) الخشبية المطلة على قمم جبال السروات المنحدرة لتهامة، وكان هذا مجلسه بعد صلاة الفجر كل يوم، يقرأ القرآن حتى طلوع الشمس؛ تحضر أمي له القهوة؛ تسكب له فنجاناً بعد فنجان حتى يشير بيد مبسوطة على فتحة الفنجان الصغير، فتتوقف عن السكب له مجدداً وتدفع بما تبقى من القهوة في الدلة إلى داخل الموقد. ثم ينهض مغادراً الدار وأذهب أنا للمدرسة ولا أراه إلا عند الظهيرة وفنجان القهوة في يده وأمي التي تسكبها له.

إلا أنه هذا اليوم لم يقم من مكانه ولاحظت بأنه يمد رجله اليمنى في محاذاة الموقد كمن يستأنس بدفء النار، وكانت أمي اليوم أكثر إشفاقاً عليه، ولاحظت بأنه يتألم عندما يحاول ثني ركبته ويشد على شفتيه في محاولة لكظم ما يشعر به من ألم. وبالرغم من إحساسي بأنه لم يكن في وضع مريح ولا طبيعي إلا أنني لم أجد غيره كي أسأله عن سر تقاطر دموع أمي المبكرة. وعن الضيوف المتوقع حضورهم وماذا ستذبح لهم؟ وساورني قلق أن تمتد يد أبي إلى السكين فيذهب بروح (الجفر) الذي قال لي أنه (باسمك هدية).. إلا أنه لم ينطق بجواب بل جذبني إليه وقبل جبهتي وجعل يسألني عن المدرسة.. وكم بقي من الإجازة المدرسية وعن زملائي والمدرس. وما إن استقلت الشمس وصرنا ضحى، حتى قامت أمي ببسط بطانية تآكل بعض أطرافها وجللتها بغطاء قطني نظيف به نقوش وردية وله رائحة عطرية، جاهدت أمي دائماً على الاحتفاظ به مطوياً ومدفوناً بين ملابسها ولم تدع لي أبداً ولا لأحد من إخوتي أن يلمسه؛ إلا أنني كنت شغوفاً بالنظر إليه بعدما أبلغتني أختي الكبيرة عن ما تعتقده شيئاً مهماً ومميزاً تخفيه أمي عن أعيننا؛ ولم تستبعد أختي أنه

شيء يمكن أكله ويمكن أن يكون (حلي) صيغة جديدة تزمع أمنا لبسها في العيد. وقد شغلني كثيراً أمر هذا السر حتى قررت أن أراه. واستقر رأيي على أن أفضل وقت لذلك هو عندما تنهمك أمي في حلب البقرة. إذ إنها لا يمكن أن تترك حلب البقرة تحت أي ظرف. وعندما حانت الفرصة التي خططت لها طويلاً شعرت برهبة؛ وتقدمت بخطى ثقيلة وكأنني مسجون يرسف في الأغلال. وفتحت السحارة الخاصة بأمي، ومددت كلتا يدي وشممت رائحة ملابس أمي تلك الرائحة المميزة التي لم تزلها أي رائحة بعد ذلك من أعماقي، فقلبت الثوب الأول؛ ورأيت جزءاً من ذلك الغطاء الأثير.. وقد لف في حرص وعناية، وكاد أن يتجمد الدم في عروقي عندما أحسست بأمي قادمة، فنهضت مسرعاً وتركت باب السحارة مفتوحاً، وسمعت أمي وأنا أخرج من باب المنزل مسرعاً كالطلقة وهي تضحك وتنادي تعال.. تعال.. تعال.. وسأريك إياه.. وكأن جملتها الأخيرة دليلاً قاطعاً على أن السر الذي تحاول الاحتفاظ به ما هو إلا ذلك (الشرشف) أو الغطاء المزركش، لا بل إنني سمعت والدي يقول لها مازحاً ذات يوم دعيهم يرونه، إلى متى تحتفظين به، لماذا لا

تستعملينه، دعينا نفترشه، فردت عليه قائلة. تريد قهوة قال نعم؛ فشرعت تسكب له القهوة..

وحاولت الربط مجدداً بين ذلك الغطاء الأثير وبين دموع أمي؛ وشعرت بحنق ورغبة في الانتقام والبكاء؛ إذ كيف يرغمون أمي على أن تخرج ذلك الغطاء الأثير لديها وبالتالي تخرج دموعها من أجلـــه؟ وهممـــت أن أطويـــه وأعيده إلى مكانه في السحارة لتقر عيـــن أمـــي وتكـــف دموعها؛ إلا أنه سرعان ما أصبح هذا الفعـــل مســتبعداً، والسبب غير وارد عندما شرعت أمي في مساعدة والدي على النهوض من مكانه؛ وسارت تسنده من جهته اليمنـــى وقد بدا عليه الألم الشديد؛ ثم وضعته على الفراش المجلل بالغطاء النفيس، وتزاحمت في رأسي الأسئلة.

لماذا الغطاء.. ولماذا تسنده.. ولماذا يتألم.. ولماذا تبكي أمي - أهله فيه - يامرحبا.. تفضلوا حياكم اللـــــه.. عبارة تفوه بها والدي يرد بها على رجل طويـــل القامـــة أسمر اللون قرع باب المنزل بطـــرف عصـــاه الغليظـــة قائلاً.. أهل البيت السلام عليكم.

كان أول من وصل من أولئك الغرباء.. فنهـــض والدي بصعوبة فعانقه ثم نظر إليَّ الرجل وجذبنـــي إليـــه

بعنف واضعاً يده ذات الأصابع الطويلة حول عنقي كمن يريد خنقي؛ وطبع على وجنتي قبلة ورفع صوته قائلاً ما شاء الله هذا ولدك؟ ونظر والدي.. فرد عليه نعم نعم.. الحمد لله.

عندك غيره.. قال الرجل

- يا حافظ عندي وعندك الخير- ثلاث بنات وولد. أجاب والدي. فرد الرجل قائلاً الله يحفظ لنا ولك وللمسلمين. قالها الرجل وهو يمد يده نحو الفنجان المسكوب من الدلة الذي قمت بسكبه له في محاولة للقيام بدور والدي؛ وقد مددت له بعد أن دلقت نصفه ولم يبق فيه إلا القليل. وشعرت بحرارة القهوة تلسع يدي؛ وشعرت بألم شديد في كفي الممسكة عبثاً بالدلة التي شرعت في الترنح تبعاً لخطواتي المترنحة نحو الرجولة المبكرة.. فغمز لي أبي بطرف خفي أن أدنو منه. فدنوت فهمس قائلاً يجب أن تتمسك لا تخاف. واتبع مؤكداً امسك الدلة باليد اليسرى وامسك الفنجان في يدك اليمنى واسكب القهوة. وأضاف في رقة قائلاًن عيب تمد للرجل بيسارك.. عدت لمكاني وسط المجلس وأحسست بزهو وثقة؛ وشرعت أراقب يد الرجل كيما تمتد بالفنجان خالياً فأملأه له مجدداً.

ارحبو.. حياكم الله.. كان ذلك صوت أبي لقـــادم جديد لمحه قبل أن ينطق بشيء أو يقرع طـــرف السـدة (المدخل) إلا أنه أي الرجل أصر على أن يطـرق البـاب ويلقي بالتحية ويرفع صوته منادياً.. أهل البيــت. الســلام عليكم.

عليكم السلام. رددناها جميعاً، أنا وأبي والرجـــل الأول وحاول أبي أن ينهض فأقسم عليه الرجل القـــادم أن يجلس ودلف وتبعه رجلان كانا يقفان في صمت خلفه لـــم يكن الاثنان يحملان عصا ولم يقرعا الباب، ولكنهما ألقيـا التحية وكان واضحاً أنهما بمعية الرجل القـــادم مؤخـراً والذي شرع والدي يناديه قائلاً كيف حالك يا فقيه؟ فـــرد الرجل بخير والحمد لله ثم تنحنح. ونظر إلى الدلـــة فـي يدي.. ونهرني والدي بصوت فيه احتجاج قـــائلاً صـب القهوة يا ولد.. شرعت في صب القهوة لأحـــد الرجليـن فأشار بيده قائلاً اعط الفقيه لم أع ما يقول. فناولت فنجان القهوة إلى صاحبه. فأشار هو أيضاً بيده قائلاً اعط الفقيه.. ناولت الفقيه القهوة وتأملت وجهه عن كثب؛ كان رجـــلاً قمحي اللون، كثيف اللحية شعره خشناً أشيب له قســمات صارمة وجبهة عريضة مخططة أفقياً حتى في تثن للجلد

يبرز كلما تحدث مد يده للقهوة فرمقت أصابعه الغليظة وراحته الخشنة.. وتبسم في وجهي قائلاً اسلم. حفظك الله يا بني وشعرت بانقباض نحوه وشيء من عدم الارتياح نحو صاحبيه المتماثلين في الطول والقصر والملامح وشيء من الراحة نحو الرجل الأول، ومالبث أن تبدد ذلك الشعور عندما قام ذلك العملاق وتقدم نحو فراش أبي وأخذ ينزع عنه ملابسه ووسط ذهولي؛ قام رجلان نحو الموقد والقوا فيه بمزيد من الحطب وأخذ أحدهم ينفخ في النار ويؤججها حتى أصبح الشرر يتطاير في أنحاء البيت ويتحول معظم الحطب إلى جمر أصفر ضارب إلى البياض لشدة اشتعاله. وشعرت بفحيح الموقد وتوقده المخيف، وشرع الآخر في البحث في أرجاء المنزل بينما نهض الرجل (الفقيه) وألقى رداءه وتمتم بكلمات لم أتبينها واقترب من النار والتقطت يده اليمنى فحمة سوداء من طرف الموقد وشرع يفركها بين يديه حتى استحالت إلى ما يشبه الدقيق الأسود. ثم نفض يديه ليتساقط الفحم المسحوق وسط صحن صغير مستطيل الشكل ذي طلاء قديم فاتح وتستخدمه أمي لوضع فناجيل القهوة قبل تقديمها للناس. بعد ذلك حمل الصحن الصغير واتجه نحو والدي وجعل الفقيه يضع أصبعه السبابة على مواضع من جسد

والدي يضغط بقوة حتى ينهمز اللحم وعندما يرفع أصبعه يبقى أثرها غائراً أبيض يتحول لون البشرة إلــى اللــون الأحمر بعد ثوان بفعل اندفاع الدم وعودتــه إلــى موقــع الركبة وأبي صامت لا يتكلــم. وفجــأة صــرخ متألمــاً فانفرجت أسارير الفقيه لتلك الصرخــة التــي افزعتنــي. نظرت نحو أمي فرأيت دموعها قبل أن تمسحها.

وصرخ أبي مرة أخرى وأمسكه الرجل الطويــل الأسمر وكان أول من نهض إليه، وجعل أبي يردد، نعــم عندك. نعم عندك. موضع الألم.. وجعل الفقيــه يغمــس طرف أصبعه السبابة في الصحن المملوء بالفحم الأســود المسحوق ويعود للضغط على تلك المواضع التي تألم منها أبي.

ومازال أبي يتألم والفقيه يضغط ثم يعود ليضغــط مخلفا بأصبعه علامات سوداء مستديرة في مساحة ما فوق الركبة حتى تحت الإبط الأيمن. ونطق الرجــل الممســك بوالدي من الخلف قائلاً عشرة - يا فقيه - عشرة أليــس كذلك. فردد معه نعم.. عشرة.

وصرخ أحد الرجلين من ناحية الموقــد المكــوي جاهز يا فقيه، ونظرت نحوهما وكنت قد غفلــت عنهمــا

وهما في أرجاء المنزل، فإذا بأحدهما يحمل في يده سيخاً حديدياً استحال نصفه إلى اللون الضارب للبياض لشدة توقده. وإذا الآخر ينفخ إلى النار على طرف سيخاً آخر.

وتراجعت ومازلت أتراجع حتى أحسست بيد تمسكني من كتفي وتجلسني؛ وجعل الرجل يتقدم نحو أبي والرجل الأسمر الطويل ممسك به والفقيه أمامه وقد مد يده نحو حامل السيخ المتقد ثم أخذه منه فهوى به نحو أبي وزكمت أنفي رائحة جلد محروق وصوت عذاب سد مسامعي، وفقدت الرؤية لدخان أزرق قاتم، ولم أعد أرى شيئاً..

وأفقت فإذا بي أستند إلى حضن أمي ويدي قابضة على مقبض الدلة؛ وقد انسكبت محتوياتها في حضني.

وإذا البيت خال من أولئك الغرباء؛ وإذا أبي ممدد في وضع كالميت وأمي تبكي والأسياخ حول الموقد باردة، والدخان يتصاعد من بقايا قبس مازالت مشتعلة.

★ ★ ★

جميلة ياسين فطاني

- شاعرة، من مواليد ١٩٥٢ (السعودية)، أصدرت مجموعة الإنتصار على المستحيل (١٩٩٠).

شيء ما.. سيقهرني

منذ أن قرر الأطباء أنها الجلطة الدموية التي أثقلت جسدها الذي طالما تجول مجاهداً عبر حروب عاتية في ساحات الحياة، وأنا أحس كل يوم كأنها تتأهب للرحيل.. إحساس المؤمن كما كانت تردد كلما دندنت بتهويمات الموت.. رتبوا هذا المكان لغسلي وتكفيني اطلبوا من أم عبدالعزيز أن تقف على غسلي.. أتشوق أن أرى أم غانم قبل موتي.. هذه وصيتي لكم.. كذا وكذا.. ونحاول جميعاً أن نغيّر لها مجرى الحديث.. فتبتسم مرددة: الموت حق.

احتضنت يدها.. قبضت عليّ بشدة، وتشبثت بي.. كانت تتألم في صمت. سيحضر الإسعاف حالاً يا أماه.. لا تقلقي..

أشاحت بوجهها.. تحاول حجب آلامها عني.. وهي تتمتم في صعوبة بالغة.. بأنفاس ضعيفة متلاحقة.. أنا بخير يابني.. أنت لا.. لا تقلق.

شقت عربة الإسعاف بنا الطرقات في مدينتي التي اكتست ذلك اليوم كآبة غروب لم أحسها من قبل.. انعكست على الطرق الساكنة بلقاء المساء.. على البنايات الشاهقة.. تلامس الغيوم الرمادية تلاحق مع نظراتها المرتعشة عبر الأفق المجهول.. سرعان ما تنقلها لتمتزج بدمعاتي التي أغالب لتخبئتها في غصة حلقي. هاجس قوي هز أركان صلابتي.! هل هذه هي نهاية الرحلة يا أماه؟؟

أحسست كأني طفل صغير أود أن أدفن رأسي في صدرها.. في لحظات دار رأسي لأرى عبر هذه الطرق الممتدة عمري.. هذه طفولتي بين عينيها.. أمي هذه الطيبة جداً.. لم تؤذ أحداً.. لم تكره أحداً.. حتى إخوتي الذين ينظرون إليها نظرة غريبة أسمعهم ينعوتها بالطيبة. زوجة أب لكنهم يدركون أنها في مشاعرها أم.. يدركون أن أهلها

زوجوها أباهم ذا الهيبة والسلطان والعلم والفضل ليسترها وهي من أسرة فقيرة يرفعها تعففها..

كان قدرها أن تعيش أرملة تسعى على رزقنا.. لا أذكر إلاّ القليل من ملامح أبي؛ لكنهم يقولون إني أشبهه، فلقد مات وأنا لم أدرك بعد قيمة حلوى أتلذذ بها أو حذاء أنتعله.

لا أدري كيف لم يكن لنا من ميراث أبي إلا اليسير الذي جعلنا - كما تقول أمي - مستورين والحمد لله، كلما سألتها عن ميراثنا. كنت أرقبها وهي تصنع المخللات والفطائر والحلويات لتبيعها على الجيران وأهليهم، ترفع ثوبها لتوفر لي ثمن الدفاتر والأقلام وهي تحتضن أحلامي بأن أصبح طبيباً مشهوراً. لم أكن أفطن حينها لم كانت تخفي ثوبي الغالي مع غترة المكتّلة، والحذاء الأبيض الأنيق حتى لتكاد رجلي تضيق به، والساعة التي اشترتها مما وفرته زمناً في صندوقها الخشبي، تخفي كل ذلك ليبقى جديداً براقاً ألبسه كلما ذهبت لأسلم على إخوتي الكبار في كل مناسبة، وبين وقت وآخر، ولا أدري رغم أنا لا نكاد نجد ما نأكله ونسدد إيجار منزلنا، إلا أنها تصر على أخذ هدية لإخوتي حتى

ليظن الجميع أنا في بحبوحة من العيش، وكلما مـدّ أحـد إخوتي يده إلى جيبه ليدس في يدي شيئاً.. حلفت له أنا في خير ونعمة، ولم أكن أحظى بالريالات القليلة منهم إلاّ بعد أن يقسم ويعظم علي أن آخذها... فتقول لي اقبـل هديـة أخيك يا أحمد.

لم تتقطع عن زيارتهم حتى بعد أن انتقلنـا إلـى المدينة الأخرى لأكمل دراستي الجامعية لكنهم كلما سـار الزمن بنا.. كلما بعدنا.. فمنهم من كثرت تجارته وأسفاره، ومنهم من تقلد المناصب وازدادت أشغاله، لطالما بحثـت عنهم.. مددت يدي لكنهم مشغولون حتى عن مصافحتي.. وكنت كلما شكوت لهذه الطيبة أني أفتقد إخوتي.. رددت.. "ستدركون أخوة بعضكم في الملمات".

توقفت رحلتي مع وقـوف الإسـعاف.. ركـض الممرضون.. واجتمع الأطباء لفحصها.. كنت أجيبهم وأنا أحس أن لا فائدة من الإجابة.. وضعوا لها جهاز التنفـس الصناعي.. وتصاعدت زفراتها.. وازداد جسمها برودة.. وهي مثل عروس في أوج تألق ابتسامتها النورانية لاقـت ربها.

أحسست كأن الدنيا قد توقفت مع أصوات الأجهزة

التي توقفت مع آخر أنفاسها الطـــاهرة؛ والتــف النـــاس حولي.. جيراني وأصدقائي.. أين إخوتك؟ أيـــن أهلــك؟. كلهم بعيدون.. قلت في نفسي ما الداعي لأن أقول لهم إنها ماتت؟ هل ليقولوا لي عبر الهاتف: أحسن الله عزاءك.!

جمع غفير من حولي.. لكني لم أعد أمـــيِّز بيـــن وجه وآخر، ولم أدر ما الذي يجري.. كأنما أنا في حلـــم سأستيقظ منه لا محالة.. هاأنذا أضعها في قبرها.. آخـــر نظرة ألاحق بها هذا الجسد الطاهر الذي جف ينبوع الحياة فيه.. وكدت أسقط على الأرض.. فأسندوني من بين نسيج الدموع الذي غلف بصري تحققت من وجوههم.. أجهشت بالبكاء وكالطفل الصغير وضعت رأسي على صدر أخـــي الأكبر وهو يحتضنني بشدة ويبكي.

★ ★ ★

فهد المصبِّح

- من مواليد (١٩٥٤) السعودية). أصدر مجموعتين قصصيتين: صاحب السيارة البرتقالية (١٩٨٨)، للدموع لغة أخرى (١٩٩٤).

برّوح

- راشد.. رويشد.. رشود.. أوو...... وجع.

نداء تكرره الأم على طفلها دون أن يأتيها الرد.. هي تعرف أين تجده، لكن الخوف يساورها كل مرة، حتى تجده عاكفاً على ألعابه، منهمكاً بما حوله من علب ورمال وأحجار وعيدان، تقترب منه.. تشده على أذنه.. ينتبه إليها.. يقوم منقاداً لها وهو نصف معلق.. يميل بجسده نحو ألعابه.. يتذكر أين تركها؟ تقفز إلى ذهنه صور عنها.. تزيد من غضبه.. عندما يعود سيخرجها إلى ساحة

الدار، ويقتص منها؛ تماماً كما فعل مع جارهم الذي ضربه. لقد جعل كل الأطفال تشارك في ضربه..لما شعرت الأم بثقله؛ لكزته برفق.. استقام جيداً.. تحسستْ رأسه.. اصطدمتْ أناملها بحبات الرمل.. كان يسمع حمحمتها وهي تسحبه.. سار معها إلى الحمام.. كما توقع.. لن يعاند.. سوف يسترد كل هذا حال عودته إلى ألعابه. سيحمم كل من في الدار.. والده وحده هو الذي يخافه.. يترك ألعابه بمجرد سماع صوته.

نزل ماء (الدش) على جسده كالسياط.. أخذت أمه تغسله بالماء والصابون والليفة الخشنة.. عيونه مغلقة.. أمه تحذره من اللعب في الأتربة.. يصغي إليها ولا يجيب.. انتهت من تحميمه.. ألقت عليه بفوطة.. نشفت شعره وهي تلاعبه قائلة:

- الآن رائحتك لن تؤذي والدك.

يفرك عينيه ويقول:

- (هالحين) أنا حلو.

- وتستاهل حلاوة.

تخرجه من الحمام.. تلبسه ملابس نظيفة دون أن

تكف عن تحذيره.. يجلس عند التلفاز.. المذيعة تصنع لعباً جميلة.. يشده عملها.. يبحث في الدار عن أشياء لمحاكاتها.. ينجح أخيراً بمساعدة أخته الكبيرة.. تصنع له دميتين كبيرتين.. تعرضها عليه.. يفرح.. يدسهما في جيبه.. يتذكر الألعاب.. أصوات الأطفال تأتيه من الخارج.. ينسل إليهم.. الأطفال ينتظرونه بشوق.. لقد أعطى لكل واحد دوره.. هذا الطباخ وذاك السائق وهذه الخياطة وتلك الطقاقة.. يقيمون فرحاً.. يلعب فيه الأطفال.. أحياناً يتعاركون.. ثم يعودون للفرح مرة أخرى.. يتساءل أحد الأطفال:-

- أين العروس؟

يخرج رويشد من جيبه الدميتين الكبيرتين.. يعرضها عليهم.. يقرأ الانبهار في وجوههم، وبعلبة كرتون يصنع غرفة.. يضع فيها الدميتين، وهو يقول:-

- كل واحد (يجيب) أمه للعرس.

أحد الأطفال يبكي.. يلتف الأطفال حوله.. يسألونه.. يرد:-

- أمي بيت جدي (تولد).

يسأله رويشد:-

- (إيش) جابت أمك؟.

- ما أدري بكرة أقول لكم.

أحدهم يسأله:-

- أجل (وين) ترقد؟.

- مع (أبوي).

يتذكر رويشد يوم نام مع أمه.. كان والده يتأفف من رائحته.. ظل تلك الليلة يقظاً، وإن تظاهر لوالديه بالنوم.. بعدها كره أن ينام معهم.

والده يقبل من بعيد.. يقطع عليه حبل أفكاره.. صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب.. الأطفال ينسحبون واحداً إثر الآخر إلى منازلهم.. أصوات الأمهات تأتي من فوق السطوح أو من النوافذ.. بعض الأمهات تحضر لأخذ ابنها.

يبقى رويشد وحيداً.. يرتب ما أحدثه الفرح.. والده يدخل وهو ينادي عليه.. يرد بالإيجاب.. تمتد يده بحذر داخل غرفة العروسين.. يخرج الدميتين. تطوف بذهنه

ذكرى الليلة التي نام فيها مع والديه. صوت والده يأتيه شديداً، يتأمل الدميتين. تطوف بذهنه ذكرى الليلة التي نام فيها مع والديه. صوت والده يأتيه شديداً، يتأمل الدميتين، يمزق ملابسهما، ثم يختبىء في ثيابه.

★ ★ ★

أحمد اليوسف

- من مواليد ١٩٥٤ (السعودية). أصدر مجموعة السنة البحر (١٩٩٠).

الأجراس

استيقظ عنوة.. فتح عينيه فهرب ندى النوم من تحت جفنيه، كان الجرس يرن في أذنيه بجبروت، قفز فزعاً.

- يا له من منبه وقح.

نظر إلى عقربي الساعة كانا يشيران إلى الخامسة والنصف.. صوت إمام المسجد يأتيه خافتاً.

- "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" قال في نفسه: يا لها من وظيفة.. نستيقظ

كالعصافير.. لنلحق رنة الجرس البكر.. أجراس حياتنا أصبحت أجراساً ترن وبطاقات.

تدخل بيتك بجرس.. تخرج من سيارتك فيصفع مؤخرتك جرس ناطق.

- باب السيارة مفتوح.. باب السيارة مفتوح.

- تبدأ عملك بجرس.. تخرج منه بجرس.. في المصعد جرس مملوك.. ينتظر إشارة من اصبعك ليحرك العمارة ويجعلها تركض من أجلك حياتنا جرس كبير وبطاقات.

وضع السجادة تجاه القبلة.. وضع هواجسه تحت السجادة، كبر تكبيرة الإحرام. وراح يقضي فرضه الفائت بخشوع.

- السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله.

اتجه إلى زوجته.. هز كتفها المخملي.. تململت انقلبت ذات اليمين.. هزها مرة أخرى انقلبت ذات الشمال.

أطلت شمس آسيوية

- بابا.. أسوي حليب.

هز كتف زوجته بقوة

- استيقظي.. لقد تأخرنا.. هذا اليوم سنصل بعـــد الجرس.

نهض النعاس من فوق رموش عينيها فاتجهت.!

أطلت الشمس الآسيوية مرة ثانية.

- بابا أمشط شعر نورة.

جاء صوتها من الحمام تفوح منه رائحة معجـــون الأسنان وأشياء أخرى

- جمانه

- نعم ماما

- مالك صلاح ببابا.. كلميني أنا

- حاضر ماما

- لبّسي الأطفال بسرعة.. هيا تحركي..

كانت الدقائق يابسة تتساقط بكثرة فيخضر القلـــق في صدره

- هيا بسرعة.. تأخرنا

- أقبلت نورة وإخوانها يحملون حقائبهم الوارمة.

- خلاص بابا.. انتهينا

لوّح الصغار لجمانه بأكفهم الطفولية.. ودعتهم بتلويحة ونظرة فصيحة

- مع السلامة

اندفع الجميع إلى داخل الصندوق الحديدي الرحّال بين الأدوار.. ضغط الأب الأزرار.. رن جرس خفيف فطارت الأبواب إلى أعلى.

هاجس يورق في نفسه كلما دخله، شعور غامض ينتابه كلما أسلم نفسه له.

يحس أنه في نعش.. نعش حديدي متحرك لعبة.. علبة تشدها الأسلاك.. ماذا لو توقف.. كيف سيخرج؟ والصغار ماذا سيحصل لهم إذا...

ردد في نفسه

- ربنا يستر.

في الشوارع المحيطة بالعمارة يتناثر الطلبة والطالبات يقطر النوم من وجوههم. خطواتهم مجلّلة بالبرود

أخرج سلسلة مفاتيح سيارته.. أولج أحدهـا فيهـا فشهقت.. رن جرس.. وتعالى صوت زاجر

- أغلق الباب.. أغلق الباب

التفت إلى أطفاله.

- اسكتوا هذا الثرثار.

- امتدت الأيدي الصغيرة نحو أبـواب السـيارة فأسكتت الصوت الآمر. لكن عندمـا حـرك الأب ذراع الحركة سرعان ما عاد مخبراً من يسمعه

- السيارة تعود إلى الخلف.. السيارة تعـود إلـى الخلف

سارت السيارة بتؤدة إلى الخلف، سيارة تلوح من بعيد قادمة.. ثم تمرق من تحت الصوت.

تنهد الأب

- يا الله صباح الخير.

ثم أدار مقود سيارته وانطلق.

خرج الأب بسيارته إلى الشارع الرئيسي. وقـف منتظراً.. كانت السيارات المسعورة تركض أمام ناظريه..

عاوده الهاجس الأول.. (السيارة أيضاً نعش.. نعش حديدي متحرك.. علبة، لعبة تسير على عجلات.. لا تدري كيف تجيئك المنية.. قد تأتيك من أمامك.. قد تباغتك من الخلف بلا إضاءة.. أو تفاجأ بها آتية إليك من يمينك.. رغم أنك تضيء إشارات التنبيه، لا تستغرب.. إن جاءتك من شمال.. كلهم يركضون بلا روية.. أعينهم مفتوحة الأجفان هذا صحيح.. لكنهم لا يرون.. أو لا يريدون أن يروا.. كن حذراً.. فالموت أصبح فخماً مموسقاً يركض إليك.. ولا تدري من أي جهة يباغتك.

عندما أنزل أبناءه أمام المدرسة كان جرس البداية يدق بحماس.. صاح فيهم:

- اخرجوا من الباب المواجه للرصيف.. ابتعدوا عن قلب الشارع.. إنه ينبض بلا وعي.

ظهراً تسلل من عمله.. وانطلق طيراً من جملة الطيور حتى وصل المدرسة.. كان جرس الانصراف يتدفق بالرنين.

أعطى حارس المدرسة اسم ابنته فتدفق هو الآخر بالنداء.

خرجت نورة مع الخارجات.. أخذها والدها من

يدها.. وسارا معاً وهما يتحدثان عن يومهـــا الدراســـي.. حتى وصلا إلى السيارة.. حـــرك الأب الســـيارة فتعـــالى الصوت مرة أخرى

- السيارة تعود إلى الخلف.. السيارة تعـــود إلـــى الخلف.

تعالت أبواق السيارات خلفـــه.. حـــرك ســـيارته وانطلق بها في شوارع تفوح بالموت.. حمد اللـــه عندمـــا تجاوز النعوش السائرة فيها.. وقف أمام شقته مطمئنــــاً.. دق جرس الباب جاءه صوتها من الداخل

- حاضر بابا

دخل مسرعاً.. يبحث عن زوجته وجدها عيناً في قناة.. ابتسم لها وهتف

- ايش طبخت لنا اليوم؟

- نظرت إليه خطفاً... ثم صرخت منادية:

جنانه... جمانة... جعلك ما تسمعين ايش طبخت لنا اليوم؟

* * *

عبدالله الوصالي

- (السعودية)، نشر العديد من القصص في الصحف والمجلات.

وميض الأزمنة المتربة

- ١ -

لم أكن أشارك أبي واقرانه ممن كان يكتظ بهم مجلسنا، وكنت حينها مكلفاً بقهوة الرجال، شعوراً يقلص قسماتهم ويخفض نبرة حوارهم الصاخب ويصلون أثناءه، فيما بينهم، إلى حالة أقرب إلى الصلح عندما يستدرجهم الحديث، دون تخطيط إلى ذكر وقائع عاصروها. ويبدأ الجمع في الانسلال الصامت تدريجاً ويبقى الوجوم ثالث

اثنين، أبي وغريمه الودود خالي، يبقـــى لمـــدة لا يعكــر صمتها المطبق سوى صـــوت ازدراد جرعــات القهــوة المحتبسة في الحلوق وأظل أنتظر لمدة ليست بـــالقصيرة، هزة اكتفاء تصدر عن اليدين المستمرتين فـــي اغــتراف القهوة. وبقدر إحساسي ساعتها بالخوف والحــرج، بقــدر فضولي الشديد في معرفة سر ما يحدث فأتابع نظراتهمـــا لأجدها دائماً تتجاوز فراش القطن الجالسين عليه وتصب دون تركيز في مساحة أقرب إلى منتصف المجلس تأكت عنها الحصيرة فبدت مـــن خلالهـــا قطعـــة مـــن الأرض المتربة.

- ٢ -

تنبهت إلى كون صوت المذيـــاع، الصـــادر مـــن الغرفة المجاورة، بدأت نبراته تتداخل وتتفـــاوت مخلفـــة ضوضاء صغيرة فغادرت إليها.

من خلال فرجة بابها الموارب أطللـــت. رأيـــت عدسة ضوء حمراء قانية، تومض من زاوية فـــي جهـــاز الراديو، متناغمة مع الضوضاء المنبعثة. وقـــد ضـــاعف

لونها ظلام الغرفة الداكن. أشرعت الباب وأنا أدخل. رأيته غارقاً في النوم. اقتربت محاذراً حتى حاذيته. كانت أنفاسه تتردد في هدوء إلا من حشرجة خفيفة أثناء الزفير.

أصبحت هذه عادته منذ توفي (خالي) يعتكف في المنزل، لا يكاد يفارق المذياع إلا في أوقات الصلاة. ويزداد التصاقاً به أثناء الليل، حيث تبدو القنوات الأجنبية، ذات البث العربي، أكثر نقاوة. وفي إحدى المرات النادرة التي غادر فيها المنزل تسبب في قلق كبير. كان شهر رمضان في يومه السادس. بحثنا عنه طويلاً قبل أن نعثر عليه جاثياً بجوار قبر (خالي)، وإلى جانبه كان المذياع يتلو نشرة الأخبار. طلبت يومها من الجميع الانصراف دون أن يشعر واتجهت إلى الجهة المقابلة بحيث يراني وأقعيت ماداً يديّ أقرأ الفاتحة.

اضطرب تنفس الجسد النائم وانقلب مكتنفاً المذياع أسفله. أصبح من العسير إغلاق المذياع دون إيقاظه. فرددت غطاءً كان ينحسر عن نصفه الأعلى حتى أكتافه وعدت أدراجي خارجاً والضوضاء المكتومة أسفل اللحاف تشيعني، تذكرني بذلك الصخب الجذل الذي كان ينبعث من (الراديو) يوم اصطحبته عائدين إلى البيت من المقبرة.

- ٣ -

حين انصرف ابني البكر من أمامي، مستجيباً للنداء الصادر من داخل البيت، كنت لاأزال أتساءل كيف لم أنتبه إلا هذه الساعة إلى الشبه الكبير بينه وبين أحد الاثنين في الصورة القديمة المعلقة على الجدار؟

منذ اللحظات الأولى من ولادته، استأثر أبي بحقه في تسميته، بينما انهمك الجميع في جدل مستعر فيمن عساه يشبه بقسماته المرنة، ولم يبق شيء فيه، وقتها، إلا وانتسب إلى أحد أفراد الأسرتين، أنفه، عينيه، قدميه.

ولم يعد أحد، الآن، يهتم أو يلاحظ، بعد أن أنجبنا من الأبناء ما أرضى فراسة أفراد العائلتين، تلك القسمات الحقيقية التي أخذت تستقر على محياه وهو يخطو سريعاً نحو الرجولة.

شعرت برغبة في النظر إلى الصورة عن قرب تطاولت، أنزلتها.. وشرعت أتفحصها كما لم أفعل من قبل. كان أبي يحتل الصورة وخالي الذي بدا وكأنه وهب ابني ملامحه يقف إلى جانبه وفي هامش صغير بالأسفل

كُتِب تاريخ الصورة، تاريخ زفافي على ابنة (خالي) وعلى جانبي التاريخ، أسفل كلاً منهما، كُتِب اسماهما المفـــردان وحين استقر نظري على اسم أبي خيّل إليّ، لوهلة، أنــــي نطقته بصوت مسموع قبل أن أدرك أن زوجتـــي كـــانت تنادي بإلحاح على ابني الأكبر.

★ ★ ★

هيام المفلح

- *(السعودية)، أصدرت مجموعة صفحات من ذاكرة منسية (١٩٨٩).*

رقصات شرسة

اعتمد - حين يحب - أن يكتب الحرف الأول من اسمها على الزجاج الخلفي لسيارته. كانت سيارته الأولى. شهادة اعتراف عليا برجولته، قدمها له والده حين لمح اسوداد شعيرات شاربه وتناميها.

في المرة الأولى..

لصق حرف (الألف) المزخرف، بعناية، وكأنه يعلق جرساً على بوابة أيامه معلناً للملأ افتتاحها على مملكة الضوء!

في المرة الثانية..

توهّج حرف (السين) في عينيه وهو يتأمله، بإعجاب، قبل أن يبصمه على الزجاج الخلفي!

في المرة الثالثة..

ضحك، منتشياً، حين اضطجع في نفس المكان، حرف (الفاء) بانسيابية.. تلفت الأنظار!

في المرة الرابعة..

كرر حرف (الهاء) على السطح الأملس وهو مغمض العينين!

في المرة الـ..

وضع حرف (الجيم) بعد أن وجد صعوبة في إزالة آثار أحرف (العين) و(النون) و(البـاء) و(الميـم)، السابقات، وبخاصة آثار حرف (الـ..)، نسي أي حرف كان.. ليس مهما.. مضى كما مضت صاحبته!

حين يتكرر نفس الحرف على التوالي، يفرح، لأنه لن يضطر لاستبداله بآخر.

عندما ينظر إلى الخلف، وهو يسوق، تتراقص

أمام ناظريه كل تلك الأحرف بشراسة، فتسد منافذ الرؤيا، وتترنح السيارة بين يديه!

عبثاً، حاول تنظيفها بكل أنواع المنظفات، وفي أحسن الورش.

- "الحل الوحيد.. أن أشتري سيارة جديدة." قالها في نفسه.

انصاع والده لرغبته.. وقدم له سيارة، من أحدث السيارات، مع عرض رائع، وجاهز للزواج!

قرر أن يكتب الحرف الأول من اسم عروسه على خلفية سيارته الجديدة.

" شيء مبهم ضحك في داخله"

- قد تتكرر أحرف الزوجات كما تكررت أحرف الحبيبات؟

"هز كتفه"

- لابأس.. أشتري سيارات أخرى!

في ليلة الزفاف.

اكتشف أن قلبه، كبرميل النفايات، ممتلىء، حتى

قمته، بالأحرف، لدرجة أنه لم يستطع احتواء حرف من اسم عروسه!

ليلتها.. تنبه إلى أمر غاب عن ذهنه.

- السيارة واستبدلتها. لكن قلبي.. ماذا أفعل به؟!

★ ★ ★

عبدالله النعزي

- من مواليد السعودية.
أصدر مجموعة سيد الطيور (١٩٩٨).

أكون في مقابر الوركاء

تغضنت عيناه

وشُدت وجنتاه

وفتح فمه.. على اتساعه

.. ثم أطلقها مدوية

وانتظر أن يسمعه.. أحد!

من قطعة قديمة

.. وعاود الوقوف بجوار البـــاب ينظــر إليهــم يحملون النعش ويخرجون. تقدم أحدهم وقال كلمـــات لــم تصل إليه. رفض أن يجلس معه أحد. ظل واقفاً إلـــى أن أقفلوا الباب خلفهم بعد أن صاح أحدهم

- وحدوه

فتدافعت الأصوات بعده بقوة

- لا إله إلا الله

اختلط وقع أقدامهم المبتعدة ببخــور المستكة الذي كانت رائحته تعبق في الدهليس مع رطوبة بعــد الغســيل والتي لم يعتد عليها تمامــاً. الأرض تلمــع ببقــع المــاء الصغيرة، وعيناه تبحث عن مصدر الضوء. كانت هذه أمه (آخر من توفى أمامه). تشكلت له لوحات وألوان وأشجار كثيرة. تطلع إلى قدميه فاستطالت أظافره أمام عينيه كأنها تتحول إلى مخالب. هزّ رأسه ليتأكد أنّه واقف. تخـــاذلت قدماه فانساب جسده على الجدار ليقرفص ويضم ركبتيـــه إلى صدره. انفتحت أمامه المسافات وإبتعد كثيراً عن دنياه الميتة وتركزت أفكاره في العناد. غابت الكثير من المعالم التي حوله، وتقصف الزمن عندما كانت ثـــلاث نظــرات

تتشبث بأهداب الصورة كأنها لا تعــرف مقدرتهــا علــى الإهمال. يتطلعون إليه دون أن يــدرك لمــاذا..؟ يمســك أحدهم بالسلال المصنوعة من القش وقد تقرفــص علــى جنب الدراجة الهوائية والآخر في نفس الوضع، فتتــوازن الدراجة ذات الثلاث عجلات، ويجاهد الثالث لكي يحــرك الدراجة، والتي ربما أصبحت الآن عربة صغيرة. تتحرك ببطء، وسائقها يتمايل بين دفع الدراجــة بــالقدم اليمنــى واليسرى وبين النظر إليه من المنتصف.

تعود إليّ أنفاسي أمامها فتبدو لي تلــك النقــوش الذهبية التي على صدرها وذلك السواد المنســدل علــى نصفها السفلي، كأنها معلقة بأبواب القصور الفخمة والتي كنت أمر من أمامها كأني أعيش في عالم آخر وأنا أنظــر إلى الدقة في الصنع والصبر عليها. ولكنها رغم ذلك كانت تبدو لي متعالية كتلك الأسوار الممســكة ببــاب القصــر. نظراتها المركزة وأنفهــا االمناســب لوجههــا وشــفتاها المفتوحتان قليلاً، تجعلني أشعر أنني دخلت ذلك القصــر ووقفت عند الباب خوفا من أن أرى كل شيء. لــم تكــن تتحرك كثيراً فقد توقفت أكثر من مرة ثم تحركت دون أن تنظر إليّ بل كانت تصعد إلى الطابق الثاني ممسكة بسياج

الدرج المذهب وتنظر أمامها صاعدة، وأنا ومن طرف خفي أتطلع إليها وأكاد أصعد خلفها ولكني توقفت عندما أدركت أنني في وسط القصر مستنداً على أحد العواميد في طرف صالة الاستقبال بالدور الأرضي..

كانت قدماي تنقلني بين الطرقات بدون هدف، فلم أتعرف على الطرق إلا والسكون يحيط بالمكان من جميع منافذه حتى زقزقة العصافير المعتاد سماعها عند نهاية النهار قد انقطعت. لم يعد يُسمع شيء سوى زفرات ذلك الشيخ الذي يسدل قدميه من على الجسر. كان الجسر شبه متداع وفي حالة يرثى لها رغم أن خشبه من شجر البلوط الضخم والذي صف جنباً إلى جنب بإحكام شرخه الزمن. والشيخ يغط في نومه لا يهتم بما حوله من الرغبات. لقد كان خدعة ملفقة من شخص لا يعرفه.

أفاق من غفوته على أنات الجسر تحت وطأة الأقدام التي تحمله. اقترب منه، حدجه الشيخ بعينيه مستفسراً عن مروره بهذا الجسر بعد أن بني أقوى منه هناك.. خلف الظلام. اقترب أكثر منه حتى لم يعد أي شيء يفصل بينهما. جلس إلى جواره وبالطريقة نفسها. نظر إليه بطرف عينيه. ولم يعرف الشيخ لها معنى. بدأ

الحديث. أجاب الشيخ باقتضاب على جميع التساؤلات التي كان يرى تفاهتها. ويرى مخالب مارد الكـــذب متغلغلـــة داخلها..

وبدون مقدمات تدافعت الحروف من فمه

- سوف أنتحر.. لكي أتخلص من هذه الحياة التي بداخلي قبل أن تتخلص هي مني..!

أجاب الشيخ ببضع كلمات غير مفهومة.

- ..

تابع كلامه، وكأنه لم يسمع شيئاً:

- لن أدع شيء ينتصر عليَّ. أنا طوال عمري لم أهزم في جميع معاركي. مع المرض. مع المـــوت. مـــع أشعة الشمس. مع رطوبة الليل. مع قسوة البرد. مع بَـــرد الشتاء. مع نفسي. مع كل شيء. لـــم أهـــزم. كيـــف إذاً تهزمني. لا.. لا أنا الأقوى. أنا دخلت هذا العالم، والـــذي رأيته وأنا أسبح في بحر السحاب. في صحراء النجـــوم. رأيته يتوارى خلف أشعة الشمس. أردت أن أنتصر عليه. قررت أن أغزوه. كسرت أشعة الواقع ودخلت إلى عالمه. لم يكن سهلاً. كان قوياً جداً تحملت جميع المواقف. ابتسم

لي.. لم أهتم لهذه الابتسامة. طوال خمسة وثلاثين عاماً وأنا في معركة. انتصرت أخيراً فيها. وابتسمت.

- تبدو أكبر مني..

- ... .. .

- .. ولكن.. ولكن أنت كاذب. كل الأشخاص الذين أتوا من قبل ذهبوا ولم يعودوا. كاذبون. أتوا بأقوال مجردة من المعنى. أنا لا أصدق أحداً غيره. إنه سيأتي يوماً. غداً سيأتي.. بعد غدٍ.. بعد عام.. بعد ألف عام.. لا يهم.. المهم أنه سيأتي.. وأتحدث معه..

وبإصرار مبهم

- سأنتحر.. لن أدعها تهزمني.. سوف أتخلص منها.. الآن يجب أن أنتصر عليها..

وقذف بنفسه في الماء..

ومع اختفائه حاول الشيخ النهوض ولكنه توقف فقد كانت الخطوات كثيرة لأشخاص يبحثون عن رجل يعتقد أنه بموته سينتصر على الحياة. نظر إليهم الشيخ متسائلاً:

- أهو مجنون..؟

- ..

- ..

ابتعدت خطواتهم عنه ببطء وبدون أن يشعر..

★ ★ ★